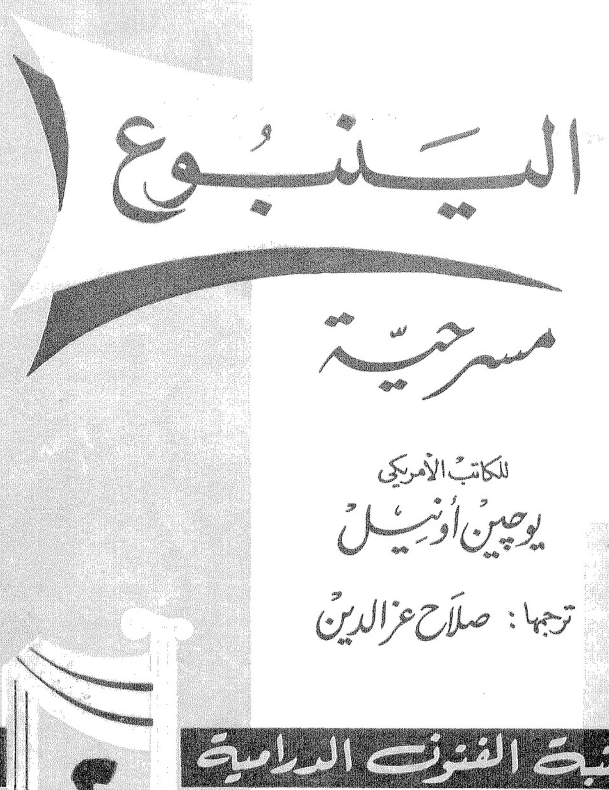


الينبوع

مسرحية

للكاتب الأمريكي

يوجين أونيل

ترجمها: صلاح عز الدين

مكتبة الفنون الدرامية

٤

تصدرها
مكتبة مصر

يحررها
عبد الحليم البشلاوي

اهداءات ٢٠٠٣

الفنان / إلهامي حسن

القاهرة

مكتبة الفنون الدرامية

(٤)

دار مصر للطباعة
٣٧ (٩) شارع كامل صدقي "الفجالة"

مكتبة الفنون الدرامية (٤)

الينبوع

مسرحية فى ثلاثة فصول

(١١ منظرا)

للكاتب الأمريكى :

يوچين أونيل

ترجمها :

صلاح عز الدين

تصدرها
مكتبة مصر

يحررها
عبد الحليم البشلاوى

The Fountain
by
Eugene O'Neill

مكتبة الفنون الدرامية

القصـــد من هذه المكتبة أن تسد ما بالمـكتبة العربية من فراغ كبير . فهى تســـتهدف ترجمة روائع المسرحيـــات العالمية وكل مايتصل بالفنون الدرامية والاذاعية من تمثيل وكتابة واخراج . ولعل هذا هو أول مجهود منظم يبذل فى هذا السبيل .

كتب تصدر تباعا

قطة على سطح من الصفيح الساخن

للكاتب الأمريكى : تنيسى وليامز

الشـــائعة

للكاتب الانجليزى : تشارلز مونرو

عيوب التاليف المسرحي

للنـــاقد الأمريكى : وولتر كير

مسرحية مرتجلة

للكاتب المجرى : فرينيك مولنـــار

الآنسة جوليا والأب

مسرحيتان للكاتب السويدى : أوجست سترندبرج

هذه المسرحية

بقلم : عبد الحليم البشلاوى

فى اليوم الثـانى من يناير عام ١٤٩٢ ميلادية ، دخـل الجيش الأسبانى غرناطة ، وبذا انطوت من كتاب التاريخ تلك الصفحة الفريدة الرائعة التى سجلتها دولة العرب فى الأندلس . سقطت غرناطة فى يد الأسبان ، وكانت عامئذ آخر معقل بقى فى أيدى العرب فى ذلك الجزء من أوروبا ، فانهارت الدولة العربية الكبرى فى الغرب .

فى تلك الليلة ذاتها ، تبدأ حوادث هذه المسرحية . فى تلك الليلة نرى الفارس الأسبانى النبيـل المغوار ، چوان پونس دى ليون ، يدخل بيت واحـد من زعماء عرب الأندلس ليقيم فيـه . فى تلك الليلة ــ ليلة النصر ــ نرى ذلك الفارس الأسبانى يبحث عن مجـد جديد يضيفه الى أمجاده السابقة . كان الأمر قد استتب للأسبان فى بلادهم ، ولم تعد للعرب شوكة ولا نفوذ ، فلا حرب ولا ضرب ، ولا طعن ولا قتال ، ولا غزو ولا فتح ، وأنى له ، وهو الفـارس الشهم المخلص لوطنه وقومه ، أن يبقى قعيـد الدار ، بعيداً عن ضجيج المعارك ؟

وسرعان ماتواتيه الفرصة التى كان يبغيها . فهذا هو كرستوفر كولمبس يزمع أن يقوم برحلته الثانية للوصول الى جزر الهنـد الشرقية عن طريق الابحار غربا . وها هو ذا فارسنا يصطحبه فى عام ١٤٩٣ . ويوفق كولمبس فى رحلته ، فيكتشف أمريكا ، ويعين چوان پونس دى ليون حاكما لپورتوريكو . ولكن هذا النصر الجديد

الذى يضيفه الفارس الأسبانى الى سجل انتصاراته ما يلبث أن ينقلب الى هزيمة مرة . وذلك الفوز يستحيل الى مأساة أليمة . فلماذا ؟

* * *

ان الاجابة عن هذا السؤال هى موضـوع المسرحية . فهذه كلها حوادث تاريخية صحيحة . ورد ذكرها فى كتب التـاريخ . ولم يبتدعها خيال يوچين أونيل . الا أن هذه الحوادث ترتبط فى المسرحية بأسطورة تاريخية مشهورة آمن بها النـاس فى فترات مختلفة من تاريخ البشرية ، تلك هى أسطورة « ينبوع الشباب » .

كان الناس يؤمنون فى قديم الزمان بوجود ينبوع يعيد الشباب الى من يشرب منه أو يستحم فيه . وكان الناس يؤمنون فى وقت ما ، بأن ينبوع الشباب هذا هو أحـد روافد نهر الفرات ، ويقال ان الاسكندر الأكبر ورجال جيشه استحموا فيه وشربوا منه . وفى العصور الوسطى شاع الاعتقاد بوجود ينبوع كهذا فى أحد بلاد الشرق البعيد . أما بعد اكتشاف أمريكا فقد اتجه الظن الى وجود هذا الينبوع فى جزر بهاما[1] . وكان العثور عليه أحد الدوافع التى حفزت « چوان پونس دى ليون » الى الرحيل مع « نانو » . وهو بالطبع لم يعثر على الينبوع ، لأن هذا الينبوع لا وجود له على الاطلاق . وانما الينبوع هنا رمز لذلك اللغز الذى حير ألبـاب البشر . ذلك اللغز الذى يكمن فيه سر الحياة والموت . لماذا يهرم الانسان ويشيخ ثم يموت ؟ أما من مهرب من الموت ؟ أما من سبيل الى الاحتفـاظ بالشباب ؟ ولو كان المرء مؤمنا لما بدا له هذا لغزا على الاطلاق ،

---

(1) تقع مجموعة جزر بهاما فى المحيط الأطلسى فى مواجهة ساحل ولاية فلوريدا الأمريكية . وسيرد ذكر هذه الجزر فى سياق المسرحية .

ولما استعصى عليه الجواب . فالاجابة لن تستغرق طويل زمن . ذلك لأن الايمان بالله ايمان بالروح واليوم الآخر . وما دامت هناك روح ، وما دامت هناك دنيا وآخرة ، فلا بد من الموت ثم البعث والنشور . وفي ذلك خير جواب .

فى مستهل المسرحية نرى چوان جنديا متعجرفا ظمآن الى المجد والثروة والصيت . لا يفكر الا فى هذا ، ولا يأبه الا به . يرفض الحب وينكره ، ويزدرى الشعر ويستنكره . وهو يحقق كل أمانيه : المجد والثروة والصيت ، بعد عشرين عاما من رحيله الى القارة الجديدة . ولكنه بعد أن حقق لنفسه ماأراد ، يرى نفسه فريسة لدسائس الكنيسة التى تحاول خلعه من منصبه . ويرى نفسه وقد تجردت من أى ولاء لأسبانيا . ويقع فى غرام ابنة المرأة التى كانت تحبه شابا يافعا ، والتى لم يبادلها الحب . ولكن غرامه هذا ـ غرام الشيخوخة ـ غرام يائس بائس ، فاذا به يجد فى البحث عن ينبوع الحياة ، ويكاد يلقى فى سبيل ذلك حتفه . ولكننا نرى فى النهاية ذلك الجندى المتعجرف الذى كان ظمآن الى المجد والثروة والصيت ، والذى كان يرفض الحب ويزدرى الشعر ، نراه قد انقلب شاعرا ، ونراه قد آمن بالبعث والخلود . وانقلبت **المادية** فى قلب الجندى ، الى **روحانية** فى قلب المؤمن . آمن بأن :

الحياة ينبوع ،
دائما يتدفق ،
الى العلا ، ليمسك بضوء الشمس الذهبى ،
ويبلغ السماء اللازوردية .
يهوى ويسقط ،
ودائما يعود ،
ليقبل الأرض كى تزدهر الزهور .

* * *

هذه هى فكرة المسرحية .

وقد يراها بعض الناس فانتازى **Fantasy** حافلة بالمجردات والايحاءات . تعتمد على الخيال . عمادها أسطورة لايمكن أن يؤمن بها ذو عقل سليم . ولكننى أراها تعبيرية **Expressionistic** سخر فيها أونيل الحوادث والشخصيات لابراز وجهة نظر معينة والتعبير عن رأى معين . بل ان الطريقة التى عالج بها أونيل هذه الأسطورة ، طريقة بارعة كل البراعة ، جديرة بالاعجاب والتقدير .

وعنصر الرمزية متوافر كذلك فى المسرحية . فان شخصية چوان پونس دى ليون هى رمز تجسدت فيه شخصية الانسان بصفة عامة ، بترددها بين المادية والروحانية ، وتذبذبها بين الشعر والحب وبين المجد والصيت . كما أن النافورة نفسها أو الينبوع رمز لذلك الأمل الخائب الذى يسعى الانسان الى تحقيقه ، أمل الخلود المادى فى الحياة الدنيا .

وقد كتب أونيل هذه المسرحية فى عام ١٩٢٥ . ونثر فى سياق حوارها آراءه فى الاستعمار ، والفتح ، والتبشير ، والتعصب الدينى ، وهى كلها آراء جديرة هى الأخرى بالاعجاب . الا أنه كان يشير دائما الى العربى المنشد الذى ظهر فى بداية المسرحية بقوله « الكافر » مما يتناسب وجو الحوادث ، وقد استبدلت هذه الكلمة بكلمة العربى الا فى موضع أو موضعين .

يونية ١٩٥٩ **عبد الحليم البشلاوى**

« ... أنها رحلة مضنية حقا . مغامرون متشـــوقون الى أسلاب وغنائم يحصلون عليها بطعنة أو طعنتين . نبــلاء يحلمون أحلاما جشعة مفعمة بثراء يؤول اليهم بفضل مولدهم . ورهبان يتحرقون الىآلات يعذبون بها رعايا مخلصين ، ويحولونهم بها عبيدا للــكنيسة . ويتولى قيادة هؤلاء أنت يا دون كرستوفر ، يا من ستنهب وتسلب لتبعث الحروب الصليبية من مرقدها . نهابون كلكم فردا فردا . أليس فينا واحد يرى فيها أرضا يشيد فوقها ويبنى ؟ سننهب وننهب الىأن يضنينا النهب ، فنخر فرائسسهلة أمام نهابين أقوى منا . الا فليرحم الله هذه الأرض حتى يهلك آخر نهاب فى الدنيا ! »

يوجين اونيل

على لســان چوان پونس دى ليون



« ... أنهم لا يرون الا الأشياء وحدها ، لا ما وراء الأشياء من روح . قلوبهم موحلة كبركة خاضت فيها الغزلان . حكماؤهم يتحدثون عن اله جاءهم منذ زمن بعيد فى صورة بشر ، علمهم أن يحتقروا الأشياء ، علمهم أن يبحثوا عن الروح فىالأشياء ، فانتقموا منه وقتلوه . عذبوه ، وقدموه قربانا لشيطانهم الذهب . عقدوا صليبا من قطعتين كبيرتين من الخشب ، وغرزوا عصيا صغيرة فى يديه وقدميه ، ... وسمَّروه ... »

يوجين أونيل

على لسان نانو

رئيس احدى قبائل الهنود الحمر

يوجين أونيل

EUGENE GLADSTONE O'NEILL

١٨٨٨ — ١٩٥٣

هو بحق أبو الدرامة فى أمريكا . كان الكتاب المسرحيون قبله فى الولايات المتحدة مجتهدين مقلدين ، أبعد ما يكونون عن الأصالة والعمق . فلما جاء وبرز ككاتب مسرحى واقعى أصيل ، كان هو الفيصل بين عهدين . عهد الجاهلية وعهد النور .

كان أبوه ممثلا مشهورا هاجر الى الولايات المتحدة من ايرلندة . وكان معبود عشاق المسرح ، ظل ١٦ عاما يمثل دور الكونت فى مسرحية « الكونت دى مونت كرستو » .

كتب عددا من المسرحيات لا يقل عن ٤٧ . منها القصيرة ذات الفصل الواحد ، ومنها العادية ذات الفصول الثلاثة ، ومنها الثلاثية **Trilogy** التى تضم ثلاث مسرحيات معا .

كان البحر يستهويه فجاب آفاقه ، وأفادته هذه التجربة فائدة كبرى تجلت فى مسرحياته .

ومن العجيب أنه لم يفكر فى الاتجاه الى الكتابة للمسرح الا بعد أن ألفى نفسه طريح الفراش فى احدى المصحات مريضا بالسل ، فى عام ١٩١٣ . ونال جائزة پوليتزر الأمريكية على اول مسرحية طويلة له ، وهى « وراء الأفق » . ونال هذه الجائزة مرتين بعد ذلك . كما نال جائزة نوبل للآداب فى عام ١٩٣٦ .

وبالرغم من هذا الانتاج الدرامى الغزير الذى خلفه يوچين أونيل ، فاننى أرى أن أروع مسرحياته تلك التى أوصى ألا تنشر الا بعد وفاته ، وهى مسرحية « رحلة النهار الطويلة الى الليل » **Long Day's Journey into Night** ، وهى سيرة ذاتية قدم لنـا فيها حياته مع أسرته فى أسلوب واقعى صادق رائع أصيل . وهى خير ما يمكن أن يقدم لعشاق الدرامة ودارسيها كنموذج للمسرحية الواقعية . ومن يقرأها يلم بالكثير من الأطوار الغريبة التى مر بها أكبر كتاب المسرح الأمريكى .

المحرر

اليَنبُوع

المناظر

الفصل الأول

المنظر الأول ـ فى فناء دار ابن أسود ، بغرناطة فى أسبانيا ـ الليلة التى سلم فيها العرب غرناطة، عام ١٤٩٢ م.

المنظر الثانى ـ السفينة المعقود لواؤها لكريستوفر كولمبس ، فى آخر يوم من رحلته الثانية ، عام ١٤٩٣ .

الفصل الثانى

المنظر الثالث ـ فناء دار الحكومة فى « بورتوريكو » ، عصر يوم ، بعد عشرين عاما أو أكثر .

المنظر الرابع ـ غرفة الأسقف مننديز فى دار الحكومة ـ ذات مساء ، بعد ثلاثة أشهر .

المنظر الخامس ـ زنزانة سجين فى دار الحكومة ، فى نفس الوقت.

المنظر السادس ـ نفس المنظر الثالث ـ والزمن ، عقب المنظر الخامس مباشرة .

الفصل الثالث

المنظر السابع ـ جانب من الشاطىء على ساحل فلوريدا ـ ذات ليلة بعد أربعة أشهر .

المنظر الثامن ـ نفس المنظر السابق ـ ظهر اليوم التالى .

المنظر التاسع ـ جانب من الغابة ـ تلك الليلة .

المنظر العاشر ـ نفس المنظر السابق ـ بعد ساعات .

المنظر الحادى عشر ـ فناء الدير الدومينيكى فى كوبا ـ بعد بضعة أشهر .



الشخصيات

ابن أسـود	زعيم من عرب الأندلس
چوان پونس دی ليون	Juan Ponce de Leon
پدرو	خادمه Pedro
ماريا دی كوردوڤا	Maria de Cordova
لويس دی ألڤاريدو	Luis de Alvaredo
يوسف	منشد من عرب الأندلس
دييجو مننديز	راهب فرنسسكانى Diego Menendez
ڤسنتى دی كوردوڤا	زوج ماريا Vicente de Cordova
الونزو دی أوڤييدو	نبـلاء Alonzo de Oviedo
مانويل دی كاستيللو	نبـلاء Manuel de Castillo
كريستوڤال دی ميندوزا	نبـلاء Cristoval de Mendoza
كرستوفر كولمبس	Christopher Columbus
جنـدی	
الراهب كويسادا	فرنسيسكانى Friar Quesada
بياتريز دی كوردوڤا	ابنة ماريا وڤسنتى Beatriz de Cordova
نانـو	رئيس احدى قبائل الهنود Nano

رئيس احدى قبائل الهنود فى فلوريدا
طبيب القبيلة الساحر
شاعر من مدينة كاثاى
هندية عجوز من جزر باهاما
راهب دومينيكى
كبير الرهبان الدومينيكيين فى كوبا
چــوان ابن شقيق چوان پونس دى ليون
Juan

نبلاء ، رهبان ، جنود ، بحارة ، هنود
أسرى من بورتوريكو ، هنود من فلوريدا

تجرى حوادث المسرحية فى أواخر القرن الخامس عشر ، وأوائل القرن السادس عشر .

الفصل الأول

المنظران ١ و ٢



المنظر الأول

(فناء قصر ابن آسود فى غرناطة .

يمثل القطاع مثلثا قائم الزاوية ، رأسه فى المؤخرة ، الى اليمين . الى اليسار ، فى الوسط ، بوابة ضخمة تؤدى الى الشارع . الى اليمين باب يؤدى الى الدار . وفى وسط الفنـاء نافورة رائعـة من الرخام الأخضر عليها رسـوم من البرونز المموه بالذهب لبشر وحيوان . الرواق المستدير حـول الفناء ينهض على أعمـدة من الرخام المصقول ، طليت أجزاء منها بماء الذهب . نقوش عربية وآيات قرآنية ، باللون الأحمر ، والأزرق ، والذهبى ، على المسطحات العلوية فيما بين العقود التى تبدو كحدوة الحصان فى تفرعها من الأعمدة . وفوق ذلك نوافذ جناح الحريم . ويمكن رؤية السماء بنجومها ، فوق المنزل . الوقت فى بداية الليل .

عند رفع الستار ، يبدو الفناء خاليا يخيم عليه السكون فيما عدا خرير الماء الصادر من النافورة . يسمع طرق مرتفع ، على نحو آمر ، كأنما يدق أحدهم بمقبض سيفه على البوابة . يدخل ابن أسود من اليمين ، وهو عربى نبيل المظهر ، متقدم فى السن ، تغطى أسفل وجهـه

لحية طويلة بيضـــاء ، ويفصح تعبير وجهه عن كبرياء شديدة يشوبها حزن واذلال . يخرج من البوابة ، ثم يعود ، متقدما ((جوان يونس دى ليون)) وخادمه ((پدرو)) . جوان نبيـــل أسبانى ، فى الواحـــدة والثلاثين من عمـــره ، طويل القـــامة ، حسن المظهـــر ، يرتدى زيه العســـكرى كاملا . ســحنته مترفعة زاخرة بأمارات الشجاعة وروح المغامرة الرومانسية ، ولكنها توحى مع ذلك بالقدرة المنظمة المدربة ، والثقة ، والتحكم فى الذات ـ طبيعـــة الرجل المفكر الطموح هى التى تسيطر فيه على شخصية الحاكم الرومانسى . أما ((پدرو)) فشاب بليد المظهر)

چوان : **(وهم يدخلون ، مخاطبـــا ابن أســـود)** معذرة ايها السـيد العربى .

ابن أسود : **(فى ترفع)** هل ستقيم هنا ؟ **(ينحنى چوان مؤمنا)** مرحبا بك اذن ، ما دامت ارادة الله قضت أن تكون أنت الفاتح القاهر .

چوان : لست هنـــا فاتحا قاهرا ، انما أنا غريب ممتن لكرم الضـــيافة .

ابن أسود : **(دون أن يلين اطلاقا)** أنت كريم . لقد رأيتك تقاتل فى الميدان . أنت شـــجاع . ان مرارة الهزيمة تزول عندما يكون العدو نبيلا **(محدقا صوب النافورة فى غم ومرارة)** ان ميـــاه النافورة تتســاقط ، ولكنها دائما

تعلو من جديد أيها السيد الأسبانى . هذه سنة الأقدار . (فى ورع) « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير » (**بقسوة وتحد**) ومهما يكن المنتصر ، فلا غالب الا الله . .

چوان : (**فى برود وجفاء**) ان جلدك يا سيدى يرفع منزلتك (**وكأنما ينهى الموضوع – يقول فى اقتضاب**) أنا أنتظر قدوم أصدقاء لى . هل يزعج هذا أهل بيتك ؟ اذا كان الأمر كذلك . . .

ابن اسود : (**فى برود**) بيتى هو بيتك . هكذا قضت مشيئة الله . (**ينحنى فى ترفع ثم يخرج من اليمين**)

چوان : (**يهم كأنما ليستبقيه – ثم يهز كتفيه**) ما عسانى أستطيع أن أفعل من أجله ؟ (**يكرر ، ساخرا ، عبارة ابن أسود ثم يقول**) هذا قضاء اسبانيا ان لم يكن قضاء الله . (**وقد رأى پدرو مستندا الى الحائط فى كسل ، وهو يحدق فى النافورة بخمول – وقد أعجبه ذلك**) أيها الجلف الكسول ، أتدفعك النافورة أنت أيضا الى الاستغراق فى الحلم (**بلهجة آمرة**) هات النبيذ . سيكونون هنا بعد قليل .

پدرو : أمرك يا سيدى (**يخرج . چوان يذرع المكان جيئة وذهابا وهو يدندن . يعود « پدرو » ويقترب من سيده فى حذر**) سيدة يا سيدى !

چوان : (**متجهما**) أهى وحدها ؟ (**يومىء پدرو مؤمنا : ويبتسم چوان فى سخرية**) لابد أنك أخطأت . قل

لها أننى لست هنا (**يستدير پدرو ليخرج ، فتظهر « ماريا دى كوردوفا » تحت عقد البوابة ، وعلى وجهها نقاب أسود سميك**)

ماريا : (**بصوت خافت مرتعش**) چوان !

چوان : (**وقد ارتد على الفور فارسا شهما ، يشير الى « پدرو » لينصرف ، وينحنى انحناءة كبيرة وفى صوته سخرية**) أيتها السيدة الجميلة ، انك تسبغين على شرفا لا أستحقه .

ماريا : (**متعبة**) أعفنى من سخريتك يا چوان (**ترفع النقاب عن وجهها . انها سيدة ذات مظهر أخاذ ، فى الثامنة والثلاثين أو فى الأربعين ، ولكن السخط والأسى قد أبرزا عمرها على وجهها**)

چوان : (**مندهشا**) ماريا ! (**ثم فى ذعر صادق**) رباه !

ماريا : (**صوتها يتهدج**) چوان ، لقد اضطررت الى المجىء .

چوان : (**متجهما**) زوجك أخى فى السلاح . والليلة سيكون هنا ضيفا من ضيوفى . كل كلمة تقولها الآن تسىء الى شرفى .

ماريا : (**فى نبرة حزن بالغ**) ماأقساك ! كان لزاما أن أتحدث اليك على انفراد . هذه فرصتى الوحيدة . سأترك البلاط غدا .

چوان : (**بارتياح واضح**) آه !

ماريا : (**تحملق فيه متوسلة بشكل مؤثر . يتجنب عينيها**) يا لى من حمقاء . . . (**تكاد تنتحب كأنما الاعتراف ينتزع منها انتزاعا**) . . أن أحبك يا چوان (**تقوم بحركة صوبه ، ولكنه يتراجع ، مترفعا ، باردا**) .

جوان : (**مقطبا**) هذه الكلمة .. اننا لم ننطقها من قبل أبدا . لقد كنت دائما .. صديقة لى . (**بعد تريث ، فى اخلاص عميق**) لماذا تحطمين صداقتنا النادرة من أجل كلمة يتشدق بها كل منشد جوال ؟ (**ثم فى ضيق**) الحب .. الحب . اننا نزعم أن الحب وحده هوالسبب الذى نعيش من أجله . ما أسخف هذا ! ان الحياة أنبل من ترهات الشعراء .. والا ، فهى لا شىء !

ماريا : (**وقد جرحت وغضبت**) لو كان عليك أن تحارب من أجل الحب كما تحارب من أجل المجد !

جوان : (**وقد أخذه الألم فى نبراتها ، يركع ويقبل يدها ، نادما**) اغفرى لى . أنا أفضل الموت على أن أجلب الأسى الى قلب طيب كقلبك . اننى أضرع اليك أن تبقينى الى الأبد فى قلبك . ولكن كصديق . كما كان الأمر دائما .

ماريا : (**بشهقة ألم**) آه (**تخلص يدها من يده . وبتنهدة عميقة**) ادعو الله أن يحيطك علما بأسرار القلوب .

جوان : (**ينهض . يحاول بوضوح تغيير الموضوع**) واذن فستغادرين البلاط .

ماريا : لقد أجابتنى الملكة الى رغبتى فى الاعتزال والعودة الى قرطبة ، (**بحماس عاطفى**) لقد سئمت البلاط . أنا أتوق الى الأشياء البسيطة . اننى أضرع الى الله أن أعود جديرة بما كنت أعرفه وأنا فتاة من حب خالص لله . لابد أن ألتمس عنده السلام ! (**بعد هنيهة**) لقد أصبحت غرناطة لنا . وتم طرد العرب

من أسبانيا . وأنتهت الحروب . فماذا أنت فاعل الآن ، يا چوان ؟

چوان : السلام معناه الركود ، فرسان يستريحون فى استرخاء ، وأغان ، وورود ذابلة . أما أنا فلابد أن امضى فى سبيلى .

ماريا : الى أين تذهب ؟

چوان : (**يبتسم لفكرة تداعب خاطره**) ربما ذهبت مع هذا الرجل القادم من چنوا ، كر ستوفر كولمبس ، حين يقلع باحثا عن الممر الغربى الى كاثاى .

ماريا : (**منزعجة**) ولكنهم يقولون انه مجنون .

چوان : (**جادا الآن**) سواء أكان مجنونا أم عاقلا فانه يحلم بالمجد . سمعت أنه يعد العدة ليفتح لأسبانيا مملكة خان الأكبر الشاسعة التى رآها ماركوبولو .

ماريا : أتتخلى عن مركزك فى البلاط الآن بعد أن جلبت اليك مفاخرك مثل هذه الحظوة ؟ ما من أحد يحطم حياته هكذا ، دون تعقل ، الا أن يكون قد انتابه اليأس ! (**فى غيرة**) لابد انك هارب من الحب . (**تسخر فى شراسة**) أهى امرأة تثأر للنساء ..؟ خبرنى ، ما اسمها ؟

چوان : (**بضحكة ساخرة**) الحب ، الحب ، دائما الحب ! ألا يمكن أن يوجد فى نظرك دافع آخر ؟ ! الا فليرحم الله النساء ! !

ماريا : (**بعد هنيهة — فى حزن**) فليرحمنى الله — لأن الرحمة هى ماتقدمه أنت لى . (**واذ يبدو أن چوان على وشك أن يحتج فى ضجر**) لاتنكر ذلك ياچوان .

أنت تهزأ بى فيما تدعيــه من ازدراء للحب ! أنت
تريد أن تهون على مذلتى . هل تظننى غبية ؟ أما
أحببت أخريات ؟ اننى أستطيع أن أعد عشرة ..

چوان : ماريا !

ماريا : اتظن أننى لم أتكهن بالحقيقـــة ..؟ كانت الأخريات
فى ســن الشباب ، بينما أنا ... وحبى يبدو لك
جديرا بالرثاء !

چوان : **(يركع ويمسك بيدها ، وفى حميــة عاطفية)** كلا ،
أيتها الصديقة العزيزة ، كلا . أقسم لك على ذلك .
(بعد هنيهة) ان ما تسمينه حبا لم يكن أكثر من
نزوات طارئة ــ أحلام ليلة أو ليلتين . مغامرات
شهوانية ، وربما كانت لفتات غرور وخيلاء ، ولكننى
لم أشــعر بالحب أبدا . أسبانيا هى خليلتى التى
أمنحها قلبى . اســـبانيا واطماعى انا ، التى هى
اطماع أسبانيا . اتفهمين الآن ..؟

ماريا : **(فى حزن)** كلا يا چوان . **(تنهض)** انا ادرك أننى
اتقدم فى السن ، وان الحب قد انتهى أوانه بالنسبة
لى ، وأننى أشــقى فى وحــدتى . لو كان الله قد
وهبنى طفلا ! ولكن الله يعاقب بعدله . لقد اطلع
على خطيئتى المستترة . لقد احببتك يا چوان ،
سنوات ، ولكننى لم اجرؤ على أن اطلعك على سرى
الا فى العام الأخير ، عندما دب اليأس الى قلبى وهو
يشعر بالشــباب يولى عنه . والآن ، وداعا حتى
تقضى ارادة الله بالموت . يجب الا نلتقى ثانية !

چوان : **(متجهما)** كلا . **(بعاطفة)** شد ما أتمنى لو لم تقولى لى هذا .

ماريا : **(برقة)** اذا كنت ما تزال صديقى فلن تتمنى ذلك. لقد كان هذا آخر ما أكفّر به .. أن تعرف . والآن وقد أخبرتك ، فاننى أشعر بالحرية ، لأن قلبى مات . ولم تعد لى غير روحى ، وهى التى تعرف محبة الله التى ترحم ولا تعذب . وداعا مرة أخرى ياچوان ! **(يركع ويقبل يدها. فتضع يدها الأخرى على رأسه كأنها تباركه)** أنت نبيل . أنت روح الشجاعة نفسها ، رجل الرجال . سترحل بعيدا ، جنديا من جديد .. وحالما . وليكن الله فى عونك اذا اصطدم هذان فى نفسك . ستكون كل صلواتى من أجل نجاحك . ولكننى سأضيف قائلة « أيها الرب المنقذ ، دعه يعرف الرحمة والحنان ليكونا عوضا له عن شبابه الجامد حين يولى » **(تستدير بسرعة وتنصرف)**

چوان : **(يتبعها بصره فى تفكير حزين هنيهة ــ ثم يتنهد بعمق ويهز كتفيه)** ان الزمن يلوث بالضعف كل شىء ، حتى النقى المستعصى **(يدخل « لويز دى ألفاريدو » من البوابة ، وهو نبيل يبدو داعرا ، ويكبر چوان ببضعة أعوام قليلة ، وجهه عادى مألوف ، ولكنه بالغ الجاذبية فى نبله وفيما يبدو عليه من أمارات المرح الساخر والكلف بالضحك ، مهمل الزى ، وثمل قليلا)**

لويز : **(ساخرا)** يا عاشق المجد ومعشوق النساء ، سلاما !

(يتقدم نحو « چوان » الذى أنتبه على أصــوات آتيــة من البوابة ـ فى همس متعجــل محــاذر) يا للشيطان يا چوان ، هل فقدت رشدك ، أم هى التى فقدت رشدها ؟ ! لقد تبينت شخصيتها بينما كان « ڤســنتى » ورائى على بعــد عشر خطوات فحسب . **(ساخرا من جديد)** الحيطة أيها الفارس النقى السمعة ، الحيطة ! !

چوان : **(متجهما)** أسكت ، انت تظلمها وتظلمنى ! **(تسمع أصوات نزاع غاضب مرتفع آتية من خارج المسرح)** ما هذا الشغب ؟

لويز : هــذا رجلى العربى **(يفسر الأمر لچوان بسرعة)** زميل شاعر ، منشد شعبى جوال . وجدناه يجرى هائما فى الطرقات ، ينــاجى النجوم ويقول لها ان ملكهم « أبا عبد الله » قد باع روحه لجهنم عندما سلم للعدو **(باعجاب)** ويا لله يا چوان ، كيف كان يلعن ! أوه .. انه منشد ثمين القدر . وكما ينبغى لشاعر على شاعر ، فقد أمسكت بخناقه ، وجررته معنا . كان صديقنا « دييجو » يريد أن يحز رقبته فى سبيل الكنيسة ، لو لم أتدخل أنا فى الأمر .

چوان : **(مبتسما)** كما ينبغى لمجنون على مجنــون ، هه ؟ ولكن فيم احضاره للنعيق هنا ؟ !

لويز : ان معه عودا . وأنا أريده أن ينشد لنا بعض شعره . **(فى زمجــرة طروب)** هــذا الحيوان لا يتــكلم الا العربية . ولو كان ماكرا فسينشد فوق رؤوســنا من اللعنات ما هو حرى بأن يجعل ماء هذه النافورة

يجف ، ولن يكون منـــا من يفهم قوله ســـواى .
(**فى ابتهاج عظيم**) سيكون ذلك ممتعا يا چوان !
(**يشتد عنف الضجيج فى الخارج**) يا لله ، سيقتل
« دييجو » شاعرى ، بعد كل ماتحملت من مشاق !!
(**يهم بالانصراف متعجلا ـ يقف عند المدخل**) تذكر
ياچوان أن « ڤسنتى» ربمايكون قد عرف . . السيدة!

چوان : (**يومىء ، ويقطب**) فليذهب الشـــيطان بالنســـاء
جميعا . (**يخرج لويز ، ويدخل « پدرو » حاملا سلتين كبيرتين مليئتين بالزجاجات . يضعهما على الأرض ، فى المؤخرة**) .

اشرب وانس هذا الـكلام الفارغ المحزن . هات الوسائد . سنجلس الى جوار النافورة . (**يخرج پدرو متجها الى المنزل ، فى اليمين . ويدخل لويز من جديد ، ماسكا « يوسف » من ذراعه. ويوسف عربى عجوز أعجف ، يلبس ملابس العامة ، ولكنه يضع على رأسه عمامة تدل علىأدائه فريضة الحج . عيناه الغائرتان تتاججان بالحقد ، ولكن التعب قد نال منه حتى بدا مستسلما لمصيره . ويتبعهمـــا « دييجو مننديز » ، وهو راهب فرنسيســـكانى يقارب « چوان » و « لويز » فى العمر ، ذو وجه طويل شاحب ، وفم دقيق قاس ، وعينين صارمتين ، شأن المتعصبين . وهو الآن يجيش بسخط وغضب عاجزين . وفى رفقته « ڤسنتى دى كوردوڤا » ، نبيـــل فى الخامســـة والأربعين ، عسكرى الهيئة ، أشيب الشعر ، عبوس الوجه . ويتبع هؤلاء النبلاء**

الثلاثة ((أوفيديو)) و ((كاستيللو)) و ((ميندوزا)) ، وهم نموذج الفرسان المغامرين من أبناء ذلك العصر . قساة ، شجعان الى حد التهور ، لا نصيب لهم من التعليم على الاطلاق . انهم فرسان ((الصليب)) ، ولكنهم يجهلون ، ويحتقرون ، أول مبادىء المسيحية الحقة وأبسطها ، ولكنهم مع ذلك يتخذون هذا المظهر البهى)

مننديز : **(غاضبا)** أنا أحتج اليك ياچوان. انه لكفر وهرطقة ان يسمح بوجود هذا الكلب بينما نرفع الى الله شكرنا على النصر !

چوان : **(يحدق صوب العربى لحظة ، فى اهتمام ـ ثم يقول بلا اكتراث)** لست ارى تدنيسا فى هذا يا دييجو . . اذا كان سيغنى لنا ، لا أن ينعق **(مستديرا الى ڤسنتى يفحص ملامح وجهه بتدقيق ـ ثم بلا اكتراث)** ماذا تقول يا ڤسنتى . .؟

ڤسنتى : **(ينظر اليه نظرة شك كالحة ـ فى برود وبلهجة ذات مغزى)** لا أقول شيئا . . . الآن .

چوان : آه ! **(يتبادل نظرة مع لويز)**

أوڤييدو : أما أنا فأقول دعوه يبقى ، فقد يسلينا .

كاستيللو : **(بابتسامة قاسية)** ربما أفلحنا ، بحد السيف ، فى اقناعه بالغناء لنا عن المكان الذى خبأ فيه قومه الذهب .

ميندوزا : كلماتك ملهمة يا مانويل .

لويز : **(باحتقار)** ماديون ! ! انكم لتنهبون السماء وتصهرون القمر من أجل الفضة ! ! چوان ، اين

نبيذك ..؟ **(يظهر پدرو حاملا الوسائد والكئوس لكل منهم . يفتح الزجاجات ، ويملأ كئوسهم الى آخرها . لويز لا يقنع بالكأس ، فيختطف منه زجاجة ويشرب منها)**

چوان : **(مراقبا فسنتى فى يقظة)** فلنشرب **(يأخذ كأسا من پدرو)** نخب ملوكنا العظام ، ونخب أسبانيا ! **(يشرب)**

مننديز : ونخب الكنيسة ! **(بغضب)** ولكننى لن أشرب حتى تبعدوا عنا هذا العربى .

ڤسنتى : أنا أوافق .

چوان : **(بنفاد صبر)** فليذهب العربى يا لويز — ما دام ديبجو جادا هكذا .

ڤسنتى : **(ممتعضا فى برود)** وأنا ؟ **(چوان يكاد يرد عليه فى غضب ، ولكن لويز يسرع بالتدخل)**

لويز : تشش !!!! سأغنى لكم أغنية **(يطلق سراح العربى ، مشيرا الى المؤخرة)** اذهب الى هناك أيها الزميل المغنى . واسترح **(يذهب العربى الى اليمين ، فى المؤخرة ، ويجلس القرفصاء فى الظل الى جوار الحائط . لويز يغنى)**

الحب زهرة ،
دائما مزدهرة .
الحياة ينبوع ،
دائما يتدفق ،
الى العلا ، ليمسك بضوء الشمس الذهبى ،
ويبلغ السماء اللازوردية .

يهوى ويسقط ،
ودائما يعود ،
ليقبل الأرض كى تزدهر الزهور .
(يصفقون جميعا عندما يفرغ من أغنيته)

چوان : هذا رائع أيها السيد الشاعر ولكنه كذب **(ساخرا)** الحب ، الحب ، دائما الحب ! ألا فليذهب الشيطان بزهرتك ! ألا تفيض الينابيع الا لتنبت أزهاراً تزدهر يوما ثم تموت ؟

لويز : فلتزأر ايها الأسد ! ولكنك لن توقظ حلمى بأن الحياة الحب .

چوان : استمع اليه يا ديجو ! اننا نعرف أن غرامه الوحيد هو أمه العجوز ، ومع ذلك فان من يستمع الىأغانيه يظن انه عاشق أعظم من .. من ...

ڤسنتى : **(مقاطعا فى سخرية)** منك انت ، يا دون چوان ؟

چوان : **(مستديرا اليه . فى برود)** كثيرا ما تطلق الشائعات أسماء زائفة ، ولكنها لا تخدع الا عجائز النساء .

ڤسنتى : **(يمتقع وجهه)** اتعنى حقا هذه ... الاهانة ؟ ! **(تمتد أيديهما الى مقبضى سيفيهما . يبدو الاهتمام والحماس على النبلاء . يقفز لويز واقفا بينهما)**

لويز : بالله عليكما ! هل أحدكما عربى ؟ **(ويرفع زجاجته)** فلنشرب ثانية نخب أسبانيا ! !

اوڤييدو : ونخب الحرب القادمة !

كاستيللو : ولتكن عاجلة !

ميندوزا : ومعها عالم بأسره للسلب ! غننا أغنية فىهذا يالويز !

لويز : ظمئى يمنعنى من ذلك . ولكن صبرا ، لقد نسيت

العربى. فلأستخدم معه الاقناع والترغيب. **(يذهب الى المؤخرة صوب المغنى ويسمع وهو يتحدث اليه بالعربية)**

چوان : كنا نتحدث عن حروب قادمة . ولكن ، مع من ؟

أوڤييدو : مع أى خصم !

چوان : ولكن خمن. أنا أظن أنها ستدور فى بلاد تقع وراء بحار غريبة ــ شيبانجو ، وكاثاى ــ مدن الذهب التى رآها ماركوبولو .

أوڤييدو : ولكن من الذى سيقودنا اليها ؟

چوان : كرستوفر كولمبس طبعا . **(يضحكون جميعا)**

كاستيللو : هذا الصعلوك من أبناء چنوا ! ! هذا يقود أسبانيين ! انه رجل مجنون . انه يزعم أن الأرض كروية ــ كالبيضة . **(يضحكون جميعا)**

چوان : **(بلهجة مثيرة)** لقد رأيته اليوم . كان ممتطيا بغله الذى فتكت به البراغيث ، وكأنه أحد القياصرة فى موكب النصر ! كانت عيناه مليئتين بمدن الذهب !

كاستيللو : چوان : أنت تضفى عليه خيالك. هذا الرجل معتوه!

لويز : **(غاضبا)** بل أنت المعتوه ان تظن هذا . ولكنه مع ذلك ، سيكتشف لأسبانيا الطريق الغربى الى الشرق.

كاستيللو : أو يزل من فوق حافة الأرض! وأراهن انك لن تقبل الذهاب معه حتى مقابل ذهب جزر الهند كله .

لويز : ستخسر الرهان .

چوان : أنا انوى الذهاب معه فعلا ، **(الكل يندهشون)** ولكن ليس فى رحلته الأولى . فاننى لكى أضع سيفى رهن عمل ، لابد أن أضمن أنه سوف يكون لمجد أسبانيا.

ولا جدوى هناك فى المقامرة بالحياة على أحلام .

لويز : لا جدوى لشيء الا فى هذا .. أنت من أبناء الشرق أيها العربى . حدثنا عن الخان الأكبر ، وملك شيبانجو وكاثاى وكامبولوك ، وعن المنازل بسقوفها المصنوعة من الذهب ، وعتباتها المرصعة بالزمرد . لابد أن قومك قد سمعوا بهذه الأعاجيب .

ميندوزا : نعم ، فليتغن بهذه الكنوز . **(ولكن العربى يظل صامتا)**

لويز : انتظر ، سأتحدث اليه . **(يذهب الى المؤخرة . ويتكلم مع العربى الذى يرد عليه)**

منتديز : **(ثائرا)** هذا كله خيانة . ان هذا الحيوان قد نقض السلام ، والعقوبة هى الموت .

چوان : **(ساخرا)** فليتغن بالكنوز يا دييجو . أن الكنيسة نفسها تحب الذهب !

لويز : **(عائدا . سعيدا مبتهجا)** انه موافق يا چوان .. لأننى زميل له . سيتغنى بكنوز الشرق . انها قصة رواها لأبيه شاعر جوال قدم من كاثاى مع قافلة . **(يسرع الجميع الى الاصغاء باهتمام ما عدا «دييجو» الساخط و « قسنتى » المتجهم المنشغل الخاطر . يعزف العربى بضعة أنغام قليلة على العود)** هس . **(يبدأ العربى فى الترنم بالشعر ، يصاحبه بالعزف على العود . وتأخذهم ، فى البدء ، غرابة النغم ثم يبدو عليهم بعد ذلك نفاد الصبر)**

أوڤييدو : يا لله ، كأن الذئب قد أصبح راعيا مريضا !

لويز : هس .

كاستيللو : **(نافد الصبر)** ماذا يغنى ؟

لويز : **(مسحوراً . بغموض)** هس ! هس !

مننديز : **(ينهض واقفا عند ما ينتهى غنــاء العربى فجأة . بصوت أجش)** هذه صلاة شيطانية !

لويز : **(يضع يديه أمام عينيه ثم يحملق صوب النافورة فى هيئة حالمة)** لقد غنى عن كنوز ــ ولكنها أغرب مما تتوقون اليه . فهناك فى بلد بعيد من بلاد الشرق ــ كاثاى أوشيبانجو لستأدرى ــ بقعة جعلتها الطبيعة بمعزل عن البشر وباركتها بالسلام . انها غيضــــة مقدسة . كل شىء فيها يعيش فى ذلك الوئام القديم الذىكان قبل أن يظهر الانسان علىالأرض . استقر فيها الجمال رائعا أخاذا . كل صوت موسيقى للأذن، وكل منظر بهجة للعين . الأشجار تثمر فاكهـــة من ذهب . وفى وسط الغيضة ينبوع ... أجمل مما تتصوره أحلام البشر . وفى مجموعة ألوانها تنعكس الحياة بكل جوانبهـــا . وفى مياه هــذا الينبوع تمرح العذارى وتغنى حولها لا تتركها ، وكل متعتهـــا أن تبقى بها حتى تصبح جزءا منها . هذا هو ينبـــوع الشباب ، هكذا قال لى . ولقــد عرف حكماء هذه البلاد النائية ذلك الينبوع منذ عصور بعيدة . وهم يجعلون زيارته قبلتهم الأخيرة عند ما يرهقهم العمر وتثقل عليهم حياتهم . هنا يشربون فتسقط عنهم الأعوام كما يتهدل الثوب العتيق . ويعود الصبا الى الذهن والبدن ، فيقفز هؤلاء الشباب ، الذين كانوا كهولا ، وينضمون الىالعذارى يرقصون. ثم يعودون

بعد ذلك الى الحياة ، ولكن بقلوب مطهرة ، لم تعـد متاعبهم القـديمة ترهقهم ، وقد زال عنهم الى الأبد ما كان يثقـل كواهلهم من همـوم ، بل أصـبحوا مقدسين يبجلهم قومهم . **(متنهدا)** هذه حكايته يا أصدقائى ! ولكنه اضاف الى ذلك أن من العسير العثور على هذا الينبوع . فما يكشف الينبوع عن نفسـه الا للصفوة المختارة من الناس .

منندیز : **(مهتاجا)** هذه وتنية !

أوڤييدو : أهذا كنزه ؟ ! ! انه ، والله ، يهزأ بنا !

لويز : حمقى!! الجمال فيه هباء. ان أرواحكم ترن كالنحاس. **(منندیز یتسلل الى الخلف ، خطوة فخطوة ، صوب العربى . يمسك لويز بزجاجة)** هيـا ، فلنشرب ولنذهب جميعا الى كاثاى مع الدون كرستوفر . لكم أن تحـرثوا الأرض وتحـفروها هناك بحثا عن الروث . أما أنا فسأبحث عن هذا الينبوع .

چوان : **(يشرب ـ ثملا بعض الشىء)** اشرب وانس الهراء المقبض ! يا للشيطان ! كانت اغنيته تطربنى الى أن جئت أنت فحولتها الى هذر العجائز هذا. الشباب!! هل الشباب كنز ؟ ! وهل نحن اذن جميعا ، عـدا « ڤسنتى » ، ثروة لا تقدر ؟ ! قسما بدم المسيح ، يكفى المرء أن يلقى نظرة ليرى كم نحن فقراء !

لويز : فقراء فى الروح ! اننى افهمك يا چوان .

چوان : ينبوع الشباب ! كان الله فى عوننا . ثم الحب أيضا ! كنت أتمنى لو تغنى ، بدلا من هذا ، بجيوش الخان الأعظم ، وسلطانه. **(ثم جانبا الى لويز)** دائما تروى

الحكايات لمن لا يقدرها . لقد كان هنا رجل يتمنى أن يشترى باللآلىء قطرات من ذلك الينبوع نفسه !

ڤسنتى : **(وقد زحف الآن ناحية چوان فى اللحظة المناسبة ليسمع الكلمات الأخيرة — فى اهتياج بارد)** منذ لحظات كنت تعيرنى بالسن . والآن تجرؤ ... **(يصفع چوان على وجهه . ويستل كل منهما سيفه)**

لويز : **(محاولا التدخل)** أستحلفكم بالله أيها الأصدقاء !

أوڤييدو : **(باهتمام شديد)** مبارزة ! ! **(يردد الآخرون هذا . وفجأة ترتفع صرخة متحشرجة من مؤخرة المسرح . ويظهر مننديز خارجا من الظلال ، وفى يده خنجر ، وعلى وجهه أمارات انتصار متعصب متهوس . ويقف الآخرون مبهورين وقد نسوا المبارزة)**

مننديز : **(يغمد خنجره)** ذبحت الكلب ! آن الأوان لذلك !

لويز : أيها المتعصب المنكود ! ! **(وفى غضبه يحاول أن يلقى بنفسه على الراهب ، ولكن چوان يمسك به ويضطره الى الجلوس على احدى الوسائد . ينهار لويز باكيا)**

مننديز : **(باردا فى ازدراء)** ماذا ! ؟ جندى من جنود المسيح يبكى على عربى ! !

چوان : **(متجهما)** صمتا يا دييجو ! **(ثم يقطب وجهه — فى اقتضاب ، وفى لهجة من ينهى موضوعا على نحو يسكت كل احتجاج)** ان مرحنا يخيم عليه طالع نحس ! انه ملوث بالدماء ! أسعدتم مساء . **(مستديرا الى ڤسنتى)** الى الغد ! **(ينحنى ((ڤسنتى)) وينصرف بصحبة مننديز . ومن خلفهما تسير جماعة النبلاء الشبان ، وهم يصخبون بالنقاش حول المبارزة القادمة ..)**

چوان : **(يعبر المسرح نحو لويز ويضع يده على كتفه ساخرا ولكن فى نبرة ملاطفة)** هيا يا لويز ، لقد مات أخوك المنشد ، لن تنفعه دموعك . بل لعله الآن يشرب من ينبوع الشباب فى أرض الأحلام — هذا اذا لم يكن فى الجحيم .

لويز : **(رافعا رأسه)** چوان ، هل تهزأ دائما بالجمال ، بينما قلبك يقول انك تكذب ؟ !

چوان : **(مقطبا)** ان فى قلبى وطنى أسبانيا — وطموحى . وكل ماعدا ذلك ضعف . **(مغيرا لهجته — بلا احتفال)** نعم ، لقد كنت مصيبا يا لويز . لقد تبين ڤسنتى شخصيتها . وهكذا ، فهى المبارزة . سأصيبه فى فخذه ثم أبعث به الى بيته ليلزم الفراش . عند ذاك ستسهر هى عليه وتحبه — وتكرهنى أنا بوصفى قاتلا . ولكن ، هناك شىء جميل يموت ، وأنا حزين يالويز . **(مستعيدا تماسكه ، ويأخذ كأسا من النبيذ)** هيا . انس الهراء المحزن ! سنشرب نخب الرحيل مع الدون كرستوفر — ونخب المعارك أمام مدائن كاثاى الذهبية ! !

لويز : **(مستعيداً مزاجه — يخطف زجاجة)** فليحرق الشيطان مدائنك ! أنا أشرب نخب ينبوعى !

چوان : فى صحتك أيها السيد الشاعر الكذوب !

لويز : وفى صحتك أيها السيد الشره الى المجد ! **(يضحكان، ويقرعان الزجاجة بالكأس ، ويشربان بينما تنزل الستار)**

المنظر الثانى

(بعد عام ــ السفينة المعقود لواؤها لكولمبس فى آخر يوم من رحلته الثانية . يبدو جانب من السفينة يكشف عن السطح الرئيسى فى وسطها والصارى الأكبر ، والشراع الأكبر وعليه شعار « صليب مالطة » ، والسطحين العلويين فى مؤخرة السفينة ، والشراع المثلث الشكل على سارية المؤخرة . السلم الخشبى فى جانب السفينة الأيمن هو وسيلة الانتقال من سطح الى آخر .

الوقت قبل طلوع الفجر مباشرة . السفينة تسير سيرا متزنا فى بحر هادىء السطح . مصباح كبير فى منتصف السطح الرئيسى ، ومصباح آخر فى أسفل فوق الحبال الى يسار السفينة ، وثالث فوق الصليب المعلق على المؤخرة . السفينة مزدحمة بالناس . النبلاء فى السطح الرئيسى يرتدون أزياء فاخرة ، ومعهم أسلحتهم . معظمهم نيام ، ممددون على سطح السفينة متدثرين بأرديتهم ، أو متزاحمين بظهور محنية ، مستندين الى الصارى أو حواف السفينة البارزة . ولكن جماعة

صغيرة ، فيما يبدو ، قد أنفقت الليل ساهرة وهم جالسون القرفصاء . يلعبون النرد فى ضوء المصباح . وتبدو وجوه اللاعبين شاحبة متوترة ، وعيونهم منفعلة . ومن البارزين بينهم «أوفييدو» و «كاستيللو» و «ميندوزا» و « لويز » .

وعلى السطح الأول للمؤخرة ، نرى الرهبان نائمين وكلهم من الفرنسيسكان . وهنا أيضا أربعة من الهنود الذين اعتنقوا المسيحية ، ممن جلبهم كولبس معه . ويرتدون ضروبا متناقضة من الثياب ، وقد بدوا أنصاف متحضرين وأنصاف متوحشين . ونراهم متكومين فى الركن الأيمن ، ليسوا نائمين ، بل متجمدين فى بلادة دون حول ولا قوة . وعلى السطح الأعلى يرى « چوان » واقفا الى جوار الملاح القابض على الدفة)

لويز : (**متحمسا**) جوز ولا فرد ؟

أوڤييدو : فرد (**يلعبان فيخسر لويز**)

لويز : لقد أفلست ثانية ! (**بزمجرة يأس مضحكة**) الحظ ! الحظ كالعاهر المرتزقة فهى تزدرى الفقراء . (**يأخذ النرد ليلقى به**) مرة أخرى !

أوڤييدو : (**متذمرا**) لا . أنت مدين لى بأكثر مما تستطيع أن تدفع .

لويز : سأصبح فى غنى قارون . ان الدون كولمبس يقول اننـا سـنرى البر اليوم : الجزر الهندية ، وجزر التوابل ، وشيبانجو ، وكاثاى ، ولست أدرى ماذا أيضا . . أنا اقامر بثروتى التى سأحصـل عليها فى المستقبل ، ضد ثروتك . هيا رمية أخرى مقابل اى شيء ترغب فيه !

أوڤييدو : (**بجفاف**) مقابل ذهب ! ذهب اراه والمسه !

لويز : يا للشـيطان . لابد ان اقترض من چوان اذن . (**ينهض واقفا**) .

أوڤييدو : لن يشكرك على ايقاظك له لكى تقترض منه .

لويز : أتظن انه ينام وارضه الموعودة بهـذا القرب ! ؟ انه واقف عند مؤخرة السفينة فى مكان القبطان ، يرقب بنفسه ظهور الأرض ، خشية أن تفوت الملاح المراقب رؤية كاثاى !

كاستيللو : ان چوان فائض الحماس . سيثير غيرة كولمبس .

ميندوزا : لقد أثارها بالفعل ! فمن الواضح أن كولمبس يقلل من شأنه .

أوڤييدو : هذه سياسة . انه يعلم أن چوان قد حرم الحظوة فى البلاط منذ المبـارزة . ان قائد اسطولنا ينشر أشرعته مع الريح .

كاستيللو : لقد دفع « چوان » ثمنا غاليا لاصابة ڤسنتى — مع أنها مجرد وخزة دبوس لم تنزف دما .

ميندوزا : والفضيحة ؟

لويز : (**ساخطا**) كلها زيف . ضغينة السنة الحاسدين ! ! لقد اعتذر ڤسنتى نفسه الى چوان . اما السـيدة

فقد رأيتها مع قسنتى حين كنت فى قرطبـة ...
زوجين لا تقع العين على أوفق منهما . بل لقد أشيع
انهما ينتظران مولودا .. **(چوان قد هبط من سطح
السفينة الخاص بالأميرال فى المؤخرة ، ومر من بين
الرهبان النائمين ، ويظهر الآن فى ضوء المصباح المعلق
على الحبال عند مقـدمة السلم المؤدى الى السـطح
الرئيسى .. يهتف لويز فجاة)** أهذا انت يا چوان ؟
تعال ساعدنى ! ان حليف الحظ هذا **(ويشير الى
أوفييدو)** قد كسب كل شىء عدا جلدى .

چوان : **(ضاحكا)** قامر اذن بينبوع الشباب الذى ستعثر
عليه ــ غدا ! لو أنك بعت ماءه بالبرميل لأصبحت
أغنى رجل فى أسبانيا **(النبلاء يضحكون)**

لويز : **(باشمئزاز حقيقى)** يا لها من فكرة تجارية ، ومنك
أنت ! **(ثم هازلا)** حذار !.. عندما تطفح عليك بقع
الشيخوخة فستأتينى مستجديا. **(ثم ضاربا النرد
بين يديه)** ولـكن هيا ، أقرضنى ذهبا أرمى عليه
النرد رمية انتقام أخيرة ! **(ثم تاتيه فكرة مفاجئة)**
وانت الذى ترمى لى النرد . ان نجمى محتجب وراء
سحابة .

أوفييدو : ليس هذا عدلا ! ان چوان يربح دائما !

چوان : **(مقطبا)** ما هذا وقت مقامرة .

لويز : **(بالحاح)** مرة واحدة يا چوان .

چوان : **(واضحا على مضض)** مرة واحدة فقط . المكسب
لك . ولتكن الرمية فألا لى . **(يخرج ذهبـا من
كيسـه . ويلعب هو وأوفييدو . أوفييدو يربح
فتسرى همهمة اندهاش)**

أوفييدو : **(فى جذل)** أنا الرابح . هذه أول مرة أغلبك فيها يا چوان .

چوان : **(ناهضا)** فأل سيىء ، **(ساخرا)** ولكن لابد أن الفأل هنا بالعكس ، فى هذا الجانب السفلى من الأرض .

ميندوزا : **(نصف خائف)** أيمكن أن نكون معلقين هنا بأقدامنا ، ورؤوسنا الى أسفل دون أن ندرى ؟

كاستيللو : هاها . ان صاحبك الايطالى قد عاد من رحلتـه الأولى ســالما ، فلا يمكن أن ننزلق من على سطح الأرض ، فيما يبدو .

أوفييدو : قد يكون كولمبس كاذبا .

ميندوزا : **(فى وحشية)** انه مدع وضيع المنبت . ولقد دلل على أصله بجشع المطالب التى قدمهــا الى الملك . فيم يا ترى كان يفكر الملك والملكة .. حتى يجعلوا من هذا الأجنبى المبتدىء أميرالا ونائبا للملك ؟

چوان : **(زاجرا فى عبوس)** ليس لنا أن نتساءل **(يصمت هنيهة ثم يضيف)** ان مشروعه خدم أسبانيا خدمة طيبة. وهوالآن قائدنا. ويكفينا هذا . **(يدير ظهره اليهم ، ويســير الى الجانب الأيمن للســفينة حيث يقف الى جانب الجبال يتطلع الى البحر ، ويتبعه النبلاء ببصرهم لحظة فى سكون يسوده الخزى)**

كاستيللو : **(فى سخرية)** أنت مســيحى حق يا چوان .. اذ تحب عدوك .

أوفييدو : **(يتثاءب)** أطفئوا المصباح ، ودعونانام ، وسيوقظنا الفجر. **(يطفىء ميندوزا المصباح، الجميع ، ما عدا لويز ، يتدثرون بأرديتهم ويرقدون على ســطح**

السفينة . ويجيء لويز الى چوان)

لويز : **(فى ازدراء)** أنظر الى هؤلاء الأغبياء . **انهم لقادرون** على النوم والشخير حتى فى يوم الحساب. **(واذ يبقى چوان صامتا)** بماذا تحلم ــ كاثاى والمجد ؟

چوان : كلا . **(ثم فجأة)** عندما نزلت سمعت اسم قسنتى واشارة الى مولود . ماذا كنت تقول ؟

لويز : شائعات قرطبة . روت لى أمى أن ماريا كانت تقيم الصلوات عسى أن ترزق وريثا . وتقول الشائعات ان الدعوات قد أجيبت .

چوان : **(باخلاص عميق)** ألا فليحقق الله هذا . ستكون سعيدة اذن . **(بضحكة ساخرة)** ألم أقل لك تلك الليلة ان مبارزتنا ستصلح ما بينهما ؟ **(فى اتزان)** ولكن الذى دفع الثمن ، أنا . حسن ! ماذا يهم الثمن ما دامت ماريا سعيدة ؟

لويز : **(مؤكدا)** مفخرة واحدة ويصبح البلاط كله ، من جديد ، عند قدميك .

چوان : **(هازا رأسه)** سنكون بعيدين عن أسبانيا . والبعيد عن العين بعيد عن القلب . وسيكون كولمبس الملك هنـا ، ونحن الاثنـان ، بالطبيعـة متنافران . .

(يسمع ضجيج آتيا من السطح العلوى فى مؤخرة السفينة ، ونتبين شخصا طويل القامة ، قادما من السلم الموصـل من القمرة الى سـطح السفينة . ويتحرك هنا عائدا حتى يكشف عن شخصه ضوء المصـباح المعلق فوق الصـليب . انه كولمبس . يرتدى زيه كاملا ، ولكن دون قبعة فوق شـعره

الطويل الأبيض . وهو شخص مهيب نبيل ، عليه ملامح السلطة والامرة ، يفيض وجهه بذلك الحماس الملتهب الذى يتسم به الذين يكرسون حياتهم للدين)

لويز : **(جاذبا جوان الى ظلام المؤخرة)** اذا ذكرت الشيطان أتاك .

(يقفان يرقبان وينصتان مختفيين عن سطح المؤخرة)

كولمبوس : **(مخاطبا ملاح الدفة)** هل تسير فى الطريق المرسوم ؟

الملاح : غربا الى الغرب يا سيدى .

كولمبس : **(متطلعا فيما حوله)** أما يطلع هذا الفجر ! **(يأتى ناحية الحافة ، وينادى الى أسفل حيث الرهبان ــ فى صوت خفيض)** أيها الأب مننديز ، هل أنت مستيقظ ؟

مننديز : **(ينهض مسرعا من بين الرهبان النائمين)** هانذا يا صاحب السعادة **(ويصعد الى السطح ويقف ينتظر فى احترام)**

كولمبس : **(بغلظة ودون اكتراث)** لابد أن هناك خطأ فى خريطة توسكانيللى . كان ينبغى أن نرى البر منذ وقت .

(هنيهة صمت . يذرع المكان جيئة وذهابا)

ستشرق الشمس عما قليل . انها فى هذه المناطق تقفز قفزا من الظلام **(صمت. ثم فى انفعال واضح)** رحلة مضنية أيها الأب . أرواحهم دنسة هؤلاء النبلاء . انهم يعتبرون هذه الرحلة وسيلة يسيرة للحصول على الثراء الوفير ، لا جهادا مقدسا فى سبيل المجد الالهى .

مننديز : **(فى اقتضـــاب)** انهم ذوو شــجاعة . وقد أثبت كثيرون منهم مقــدرتهم فى الحرب . چوآن پونس دى ليون مثلا .

كولمبس : **(ممتعضا)** هذا وغد جسور. متهالك على المبارزة.

لويز : **(فى انفعال هامس)** فليسحقه الشيطان .

چوان : عاقبة أخرى لتلك المبارزة المشئومة .

منندیز : **(فى ايجاز)** لم تنصفه يا صاحب السعادة .

كولمبس : أوه . اننى أسلم بأنه حائز على كل الصفات ، الا تلك التى وحدها تكسبها جميعا صفة الفضيلة ــ اعنى التواضع الورع . ليس فى هــذه الرحلة الـكبرى مكان للأنانيين الذين لا يســعون الى غير مصالحهم الشخصية . ينبغى أن نؤمن جميعا بأننـــا أدوات صغيرة لتحقيق الارادة الالهية المقدسة **(يتوقف وفجأة)** لكننى لم استدعك هنا للحديث عنه **(بعد هنيهة، فى قنوط)** ان روحى يثقلها عبء لا تطيقه.

منندیز : **(فى جفاف)** أترغب فى الاعتراف ؟

كولمبس : **(مندهشا)** الاعتراف ! **(فى نبرة عالية ، رنانة)** أجل ، ولــكن للناس جميعا . ان أفواههم مكتظة بالأكاذيب ضدى. يقولون ان ما طلبته لقاء اكتشافى يثبت جشـــعى ووضاعتى . هؤلاء الأوغاد ! ماذا يعرفون عن قلبى ؟ أمن أجل نفسى أريد الثراء ؟ كلا . وانما أنا وسيلة الله المختارة . أرشدنى الله الى جزره الهندية . وأنا فى حاجة الى ذلك السلطان الذى يجلبه الثراء . . . فى حاجة اليه من أجل المجد العلوى ، لا مجدى أنا . **(يزداد تهللا)** ان فى قلبى

حلما يا أبتاه . أصغ الى . منذ باكورة شبابى وأنا أمقت الـكفرة . لقد حاربت قراصنتهم ملاحا فى سفن جنوا ، وحينما رأيت قســاوتهم وضراوتهم قد قطعت تجــارتنا مع الشرق ، صليت لله أطلب حربا صليبية واحدة ترد البحر الأبيض الى أحضان العالم المسيحى . وكانت أعظم صلواتى تبتلا تلك التى رفعتها من أجل اســتنقاذ أرض المسيح من الدنس **(يرسم علامة الصليب ، وكذلك يفعــــل مننديز . ثم يمضى هو مسرعا فى جذل وابتهــاج)** والآن ها هى دعوتى تجاب . وبنصيبى من ثروة الهند وشيبانجو وكاثاى سأجرد جيشا ... أشن به آخر حرب صليبية . لقد وعدت بها قداســة البابا . . خمسة آلاف رجل ، وأربعة آلاف حصان ، تتلوها قوة مماثلة بعد خمس ســنوات . سأعيد غزو الأرض التى حظيت بقبر المسيح المقدس ، فى سبيل العقيدة الحقة . ومن أجل هذه الغاية المقدسة أكرس كل حياتى وثروتى وقوتى **(يقف محدقا الى السماء بتلك النظرة التى تتألق بها عيون المتحمسين الدينيين)**

مننديز : **(فى جفــاف)** ان مثــل هذا الطموح الورع يرفع منزلتك .

چوان : **(عاجزا عن ضبط نفسه ، يقول ساخرا)** لقد انتهت الحروب الصليبية ، ولكننا لم نفز بعد بثروة الشرق .

كولمبس : **(كأنما لدغ يقول فى غضب)** من ذا الذى يجسر ..؟

چوان : **(فى كبرياء)** نبيل من اســبانيا يفكر فى عظمتها ،

بينما تحلم أنت بچنوا وروما . جندى من العصر الحاضر ، لا شبح من أشباح الصليبيين (**ثم بسخرية ونفاد صبر**) بحق دم المسيح هل أصبح كل قوادنا أنصاف رهبان ..؟ كان هنـاك وقت لذلك عندما حاربنا العرب . أما الآن فان عهدا جديدا يشرق فجره على أسـبانيا بامبراطورية عالمية . انك اذ تعيش فى الماضى انما تكرس مستقبل أسبانيا للتعصب .

كولمبس : (**فى غضب**) وقح !

چوان : (**فى حمية**) كلا ! انا أحترمك يا كولمبس ، ولـكن لى حلمى أنا الآخر . تستطيع أسبانيا أن تصبح سيدة العالم ، وأعظم من روما القديمة ، اذا استطاعت أن تجد قوادا يكسبون لها الفتوح . ويعرفون أيضا كيف يحكمون بروح السماحة والاعتدال (**يضحك ضحكة مريرة ، ساخرة**) ولكن يا له من وقت لمثل هـذا الحديث ! أنظر الى رجال هذا الأسـطول . الآن ، والشرق على وشك أن يتكشف لهم ... أنا أوافقك يادون كرستوفر ، أنها رحلة مضنية حقا ، مغامرون متشوقون الى أسلاب وغنائم يحصلون عليها بطعنة أو طعنتين . نبلاء أسبانيا يحلمون أحلاما جشعة مفعمة بثراء يؤول اليهم بفضل مولدهم . ورهبان يتحرقون الى آلات يعذبون بها رعايا مخلصين للتاج ويحولونهم بها عبيدا للكنيسة . ويتولى قيادة هؤلاء أنت يا دون كرسـتوفر ، يا من سـتنهب وتسـلب لتبعث الحروب الصليبية من مرقدها . نهابون كلـكم فردا فردا . اليس فينا واحد يرى

فيها أرضا يشيد فوقها ويبنى ؟ سننهب وننهب الى أن يضنينا النهب فنخر فرائس سهلة أمام نهابين أقوى منا . ألا فليرحم الله هذه الأرض حتى يهلك آخر نهاب فى الدنيا ! **(وبينما هو فى حديثه تكون الظلمة قد خفت الى حد ملموس)**

كولمبس : **(ثائرا)** من أنت .. تقدم . أنت لا تجسر على ذلك .

چوان : **(يقفز الى سطح المؤخرة ، ويتقدم الى السلم صاعدا الى الأميرال فى كبرياء)** انه أنا ، چوان پونس دى ليون ، لماذا لا أجسر .. أتريد تحت قيادتك رجالا ، أم حجابا وخدما ؟

كولمبس : **(محاولا أن يكتم غيظه)** صمتا **(يتردد نداء طويل كالنواح « الأرض أمامنا » آتيا من ناحية الصارى الكبير . وعلى الفور يسمع النداء نفسه آتيا من بقية سفن الأسطول . يسود الهرج والمرج . يقفز الجميع واقفين ، أنصاف نيام يحملقون فيما حولهم مشدوهين . وبالاحساس الغريزى ، يدرك الهنود الأربعة ما حدث ، فيتعلقون بحافة السفينة ، يحدقون عبر المياه فى حنين عميق . ويتقاطر الى السطح حشد من البحارة والأتباع لم يكملوا ارتداء ملابسهم ، قادمين من أسفل . يسمع خليط من الصيحات . يتطلع كولمبس الى أعلى ليرى الناحية التى يشير اليها المراقبون ، ثم يستدير الى الجانب الأيمن للسفينة ، ويقفز «چوان» الى سلم الصارى)**

المجموعة : الأرض .. الأرض .. أين ؟ لقد سمعت النداء . لقد قال المنادى .. الأرض . الى أين يشير ؟ أنظر

اين يتطلع الأميرال . عنـدما تظهر الشمس ...
(وفجاة تكتسح سطح السفينة أشرطة من ضوء ذهبى مشرب باللون القرمزى . يهتفون جميعـا)
الشـمس .

چوان : **(مشيرا)** هناك . . اننى أراها . فى هالة من الذهب والأرجوان ! أسبانيا الجديدة العظمى .

الجميع : **(يتزاحمون الى الجانب الأيمن للسفينة ومقدمتها . يزيحـون الهنـود من الطريق ، ويدفعونهم يمينـا ويسارا . ويلقون بهم جانبا فى ازدراء ، مصحوبين باللعنات والشتائم ، حتى ينزوى هؤلاء فى المؤخرة وقد حيرهم ذلك وملأهم رعبا . وهناك يجلسون قانطين)** أين . . اننى أرى . أين ؟ هناك . هناك كاثاى . شيبانجو . أهى كاثاى ؟ أين المدن الذهبية ؟ أهى شيبانجو ؟ جزر الهند . جزر التوابل . أرض ماركوبولو **(يتزاحمون جميعا ، وهم يتـدافعون فيما بينهم ، ويمدون أعناقهم ، وقد امتلأت عيونهم جميعا ـ خدما وبحارة ونبلاء وقسسا ـ بنفس النظرة المتطلعة فى جشع ، وشـوق ، الى السلب والنهب)**

چوان : **(فى جذل)** كاثاى أو شيبانجو أو جزر التوابل . ماذا يهم ؟ ستكون أسبانيا الجديدة العظمى **(يهتف الجميع بأصوات عالية)**

كولمبس : **(محاولا أن يخمد الضجيج)** صمتا . قلت لكم صمتا . **(مثبتا عينيه فى عبوس نحو چوان فيبـدو فيهما العداء غير مقنع ـ لائما)** الأرض أرض الله . فلنرفع

شكرنا لله ، اركعوا . انى آمركم . ارفعوا الصليب .

(يرفع الرهبان صلبانهم . يركعون . ولكن النبلاء والجنود يترددون فى انتظار ((چوان)) كأنما رأوا فيه قائدهم الحقيقى)

چوان : **(يقفز من مكان على حبال السفينة ويستل سيفه - فى جذل هائج)** هـذا أيضـا صليب ، صليب الجندى - صليب أسـبانيا **(يغرز حد سيفه فى خشب السفينة ، ويركع أمامه . يحذو حذوه كل النبـلاء والجنـود فى موجة عارمة من الهتـافات والاشـارات العنيفـة . كلهم راكعـون الآن أمام صلبانهم . سيوفهم المرتعشة أمامهم ، وقد ارتفعت مقابضهم فوق مستوى رؤوسهم)**

كولمبس : **(على ركبتيه - ناظرا الى السـماء فى تبتل)** لك الشكر يا رب ..

(يبدأ الرهبان فى الترتيل . ويشترك الجميع فى انفعالهم هذا ، فيكتسب ترتيلهم خليطا من الفوضى والتوتر . چوان لا يشترك فى الترتيل ، بل يحدق ناحية الأرض الماثلة فى الأفق البعيد)

سـتار

الفصل الثاني

المناظر ٣ و ٤ و ٥ و ٦



المنظر الثالث

(بعد عشرين عاما أو نحو ذلك ـ فناء قصر الحـاكم ، فى ((بورتوريكو)) . أزهار وشجيرات ، وأشجار جوز الهند والبرتقال والموز . وفى الوسـط نافورة كبيرة أنيقـة شديدة الشبه بنافورة المنظر الأول. ويحيط بحوض النـافورة ممشى ضيق مرصوف . تتفرع منـه مماش أخرى تؤدى الى مختلف المداخل . والى اليمين واليسار أبواب تؤدى الى داخل القصر . وفى الوسط الى المؤخرة نرى المدخل الرئيسى الى الفناء ، ويؤدى الى الطريق .

السـاعات الأخيرة الثقيلة بعد ظهر يوم خانق الحرارة . الفناء يتلظى بالحرارة ، ومياه النافورة تتلألأ فى الجو الحار .

((چوان)) جالس على المقعـد الحجرى أمام حوض النافورة ، مرتديا الزى الرسمى الـكامل لمنصبه كحاكم للبلاد . وجهه الآن يحمـل معالم السن والغضون والضمور . شاب شـعر رأسه ولحيته . عيناه تحدقان أمامه غارقتين فى حلم فاشـل . والخطوط المريرة مرتسمة حول فمه المطبق . يدخل

لويز من اليســار فى المؤخرة يرتدى مسوح الراهب الدومينيكى ، ويدل وجهه على الأعوام التى مرت ، ولـكنه قد اكتسب الآن تعبيرا هادئا راضيا ، كأنما أصبح أخيراً على وفاق مع نفسه . ويهبط متجها الى چوان ويضع يده على كتفه)

چوان : **(يتنبه من شروده ـ ثم يحيى صديقه بابتسامة)** هذا أنت أيها الأب الموقر ! **(ويضغط على حروف الكلمة الأخيرة ساخرا)**

لويز : **(فى صـفاء)** أجل أيها الحاكم العظيم **(يجلس الى جوار چوان . ضاحكا)** أنت تبدو كطفل ســاخط يا چوان . هيا ، ألم يحن الوقت بعد ، وقد انقضت سنوات خمس ، لكى تغفر لى ، أن أصبحت راهبا دومينيكيا .

چوان : **(فى مرارة)** اغفر لصديقى أن يهجرنى الى عدوى !

لويز : **(محتجـا)** أوه لا تقل هذا **(بعـد هنيهة صمت ، يتنهد ويقول)** لقد كنت دائما تحـلم بكاثاى . وأنا بم كنت أحلم ؟ ماذا فعلت بحياتى ؟ لقد كنت وغدا مدعيا ، لا هدف له فى الحيـاة . لا هو بالشـاعر ولا هو بالجندى ، لا مكان فى الأرض ولا ســلام فى الروح . لم يكن هناك معنى لحياتى حتى بالنسبة الى نفسى ، الى أن هدانى الله الى ارادته المقدسة .

أنا الآن أعيش فى رحاب الحق . لـكى تملك شـيئا
لابد أن تنبذ شيئا .

چوان : ما أسخف الحياة اذن لو كان ذلك حقا ! (**بعد فترة، مغتاظا**) أنا أخوض المعارك . وأنتم ، أيها الرهبان ، تسرقون الغنائم . أنا أحاول أن أبنى ، فتقيدون أنتم يدى وتهدمون .

لويز : (**محتجا**) أنت تتحدث عن « دييجو » وأمثاله .

چوان : انت تستخدم الرحمة فى تحويل الناس الى المسيحية ، وهو يستخدم القسوة ، ولـكن النتيجة واحدة . ان عملية تعميد الهنود هذه ، عملية قسرهم على ازدراد الصليب رغم أنوفهم ، ثبت أنها غلطة بشعة ، لقد سحقت أرواحهم واضعفت ابدانهم . وأصبحوا الآن عبئا على اسبانيا بدل أن يكونوا لها خدما نافعين .

لويز : لقد سحقهم جيشك أولا .

چوان : كان ينبغى أن نفتح بلادهم ، ولكن ما كنت لأزيد عن ذلك (**غاضبا**) ها نحن نتناقش فى هذا الأمر للمرة الألف . لقد فات الأوان . ولم يعد للكلام جدوى . (**يتنهد متعبا**) نحن نفعل ماينبغى علينا ، وستوارى الرمال أجسـادنا وافعالنا (**بابتسامة**) ثم انه يوم قائظ الحر لا يطاق . هات الأنبـاء . أيصل اليوم ذلك الأسطول القادم من اسبانيا ؟

لويز : لقد رأيتهم الآن مبحرين صوب الميناء بكل سرعة . سيلقون مراسيهم عما قليل . (**تقطع عليهم الحديث ضجة اشخاص يقتربون اليهم من الخارج . يدخل أوفييدو والراهب كويسـادا وهو فرنسيسكانى ،**

يتبعهم الزعيم الهندى « نانو » يحرسه جنديان بسيوف مشرعة . « كويسادا » راهب شاب ، نحيف ، له عين المتعصب الملتهبة ووجهه الضامر المتقع . أوقبيدو الآن مسن ، ولكن دون اشارة تدل على تغير فى شخصيته . « نانو » هندى طويل القامة ، قوى البنيان ، فى الخمسين من العمر أو نحو ذلك . ومع أنه مثقل بالسلاسل ، الا أنه يسير منتصب القوام وعلى وجهه أمارات اعتزاز وتباعد . ويضع على رأسه غطاء من الريش . طلى جسمه ووجهه بالألوان . وتزين بالعقود حول عنقه . وهو عارى البدن الا من غطاء للعورة ونعلين فى قدميه)

كويسادا : (**بوحشية ورعونة**) أنا أطالب بتنفيذ العدالة فى هذا الكلب .

چوان : (**فى برود وفى كبرياء**) تطالب !

كويسادا : (**فى كراهة لم يحسن اخفاءها ، وان كانت طريقة چوان قد أفزعته**) اغفر لى حميتى فى خدمة الله ، ياصاحب الفخامة . أرجو تنفيذ العدالة (**ثم متحديا**) ولكن ليس من عادة الكنيسة أن تقف موقف الرجاء .

چوان : هذا أسوأ (**فى تجهم**) ما جريمة هذا الهندى ؟

كويسادا : قبيلته ترفض أن تدفع الضريبة . وهو نفسه قد تجاسر ورفض التعميد المسيحى .

چوان : (**فى برود**) سأستجوبه أنا (**يتردد كويسادا وهو يصطخب بالغضب فى أعماقه . چوان يقول فى خشونة**) يمكنك أن تنصرف .

كوسادا : **(ينحنى كاظما غضبه)** نعم يا صاحب الفخـامة .
(ينصرف) .

چوان : **(مخاطبا أوفييدو فى احتقار أكيد)** ألديك أنت أيضـا تهمة ضد هذا الهندى ؟

أوفييدو : **(فى غضب)** ألتمس العدالة ، هؤلاء الكلاب لا يريدون أن يدفعوا ما عليهم من ضرائب . ونحن الذين نملك الاقطاعات لا نستطيع أن نجعلهم يعملون فيهـا الا باستخدام القوة التى قضيت أنت بالحد منها . فلم اذن لاتعاقبهم بان تجعلهم يعملون لدينا وفاء لديونهم؟ وبهذا تدفع للحـكومة أنصبتها ، ونجـد نحن عمالا لمناجمنا وحقولنا .

چوان : **(وقد ثار اشـمئزازه)** ليست هذه فكرة مبتـكرة يا أوفييدو . فانت تعلم جيدا أن هذا هو نفس الخطأ الذى ارتكب فى مستعمرة « اسبانيولا » . ان ذلك معناه الاستعباد . وهى وسيلة تقضى على الغرض المنشود منها . ان الهنود يموتون تحت السـياط ، ومعهم تموت أعمالك. **(فى احتقار)** أتظننى كولمبس حتى تطلب الى ارتكاب هذه الحماقة ؟

أوفييدو : **(فى ترفع وتعال)** هل ترفض ؟ **(يذهب الى المؤخرة حيث يستدير اليه مهددا)** خذ حذرك يا چوان . سيأتى يوم الحساب . عندما يعود دييجو من أسبانيا .
(يخرج) .

چوان : **(مقطبا)** دييجو .. ماذا تعنى ؟

أوفييدو : **(بابتسامة تشف)** لا شىء . وداعا يا دون چوان .
(يخرج) .

چوان : **(بضحكة مريرة)** هذا هو جزائى . تبا لذلك كله . وما الفائدة ؟ . . . **(فجاة يبـــدو كأنه يرى « نانو » للمـــرة الأولى . ويحملق كل منهما فى الآخر)** لقـــد نسيتك . ألست أنت نانو زعيم آخر قبيلة قهرتها ؟ **(اذ يبقى الهنـــدى صامتا . يقول بلهجـــة آمرة)** تكلم . .

نانو : كانت الشـــياطين تحالفك . حرقت قرانا . وقتلت نساؤنا واطفالنا ــ زوجاتى وأطفالى .

چوان : **(مقطبا)** هذا يخالف لأوامرى . ولكن ، مرة أخرى، ما الفائدة ؟ من مات مات . لقد فات الأوان . **(بعد فترة ــ بنوع من السخرية فى النفس ، وفى تعب)** ألم تسمع أبدا عن كاثاى وشيبانجو ؟ أتعرف بلادا واسعة تقع الى الشرق وفيها ناس كثيرون ، وقرى كبيرة بها أسوار عالية . . وذهب كثير ؟

نانو : أجل ، سمعت .

چوان : **(مندهشا . يسأل باهتمام)** آه ، وأين هى ؟ **(يشير نانو ناحية الغرب)**

لويز : **(لاهيا)** هناك حيث يوجد ينبوع الشباب ، ينبوع أيام خمرى ولهوى . . هناك فى أرض الأحلام .

چوان : **(بنوع من الجـــد)** انهم يقولون انه توجـــد بين هذه القبائل أسطورة عن ينبوع مماثل **(ثم مخاطبا « نانو » بابتسامة ساخرة)** ان صديقى هذا استبد به القلق فى انتظاره الخلود فى السماء ، وهو يفضـــل أن يفوز بذلك هنا ، على الأرض .

لويز : چوان .

چوان : فهلا أخبرته أيها الزعيم الجبار عما اذا كان هناك ينبوع يستطيع المسنون من الرجال أن يستحموا فيه أو يشربوا منه فيصبحوا شبابا مقاتلين من جديد ؟

نانو : (**لدهشة كل منهما**) اجـل . هكذا يقولون . ولكن ليس هنا . بل فى وطنى . وهى بلاد لا نهاية لها . لقد روى قساوستنا هذه القصة ، وكنت صغيرا عندئذ . لقد أسرت فى الحرب وجاءوا بى الى هنا . وتبنانى أحدهم . ولم أعد أبدا الى بلادى .

چوان : (**غارقا فى التفكير**) هكذا ! وأين هذه البلاد ، موطنك؟ (**نانو يشير كما سبق له أن أشـار**) وأين كاثاى ؟ والينبوع ، أهو هناك ؟

نانو : (**بعد لحظة تردد**) نعم . ان قومى يسمونه « ينبوع الحياة » .

لويز : (**وقد أثاره الخاطر**) اسم جميل (**مرتابا**) وما أظن أحدا يستطيع العثور عليه .

نانو : هؤلاء الذين تحبهم الآلهة يستطيعون أن يجدوه .

چوان : (**باحتقار**) آه ! حيلة الشعراء العتيقة ــ التملص من الحقائق (**مستديرا الى لويز**) أتذكر العربى الذى كان معنا تلك الليلة فى غرناطة ؟ « فما يكشف الينبوع عن نفسه الا للصفوة المختارة من الناس » . هكذا قال. هذا الصدى هنا يردد صوته ذاك. ياللشعوذة ! (**ثم فى تفكير**) ولكن هذا غريب . لا دخان بلا نار . لقد نسب العربى أسطورته الى الشرق ــ كاثاى ــ وها نحن الآن نقع عليها من جـديد ــ فى كاثاى أيضا . بينما قمنا بدورة حول العالم (**كأنما قد خجـل من**

نفسه أن أخذ المسألة مأخذ الجد هكذا ، يقول دون اكتراث) على أية حال ، هذا دليل جـديد على أن كاناى قريبة **(تسمع طلقة مدفع آتية من ناحيـة الميناء)** .

لويز : لقد ألقى الأسطول مراسيه .. وسيأتى دييجو . اذا استطعت أن تعهد الى بهذا الهندى فسأحاول ادخاله فى الدين المسيحى .

چوان : **(نافد الصبر)** لابد أن يذهب الى السجن على ذمة التحقيق فى هذه القضية . ولـكن يمكنك أن تزوره هناك **(مخاطبا «نانو» ، مقطبا) اذا** ثبت أنك شجعت التمرد على أسبانيا ، فستشنق . أما اذا كنت متهما بأية تهمة أخرى فسأحاول انقاذك **(مستدعيا الجنود)** أيها الحراس **(يحيون ويقـودون نانو الى الخارج من اليسار . چوان يذرع المكان جيئة وذهابا وهو يفكر فى جد وتجهم)** دييجو ! هل سمعت أو ڤييدو يهددنى به ؟ أية مكيدة أتى بها من أسبانيا هذه المرة يا ترى هذا العنكبوت الملعون ؟ سيفسد تآمره كل ما قمت به هنا **(فى غضب عاجز)** والمعركة لا أمل فيهـا . ان أسلحته همسات وأراجيف ، وحيالها يقف الرجل الشريف أعزل من السلاح . **(معبرا بقوة)** أسـأل الله أن يكون هذا الأسطول قد حمل لى تفويضا ملكيا باكتشاف بلاد جـديدة . اذن لسافرت غـدا الى كاناى ــ أو الى القمر .

لويز : **(بحزم)** حارب معركتـك هنا . هذه بلدك . انت الذى فتحتها .

چوان : كولمبس هو الذى اكتشفها . وما زلت أشـعر بأثره هنا يخنق أنفاسى ، كأنه ضباب أسود ..

لويز : (**ملطفا الأمر**) لقد مات فاعف عنه . لقد تحمل من المظالم ما أعجزه عن أن يكون عادلا .

چوان : كيف يمكن لكبريائى أن تعفو . لقد ظللت سـنوات أعمل فى المواقع النائية ، وعانيت من الجروح والحميات .. من أجله حاربت الهنود ، بينما أقلع هو مبحرا الى جنة عدن ، وكنوز سليمان ، وطوبيات الانجيل . كان يعلم أن شرفى لن يسمح لى بالتآمر ضـده كما فعل الآخرون ، ولذا فقد تجاهل خدماتى وحكم على بخمول الصيت فلم يرد لاسمى ذكر ، ولا مرة واحدة ، فى تقاريره الى اسبانيا . ولكن منذ سقوطه فقط ... (**ثم يترك الموضوع فجأة**) بل حتى هـذا أيضا ان هو الا قصة عتيقة (**ثم بنفـاذ صبر مفاجىء**) لماذا لا أرحل أنا للبحث عن كاثاى ؟ لقد فشل هو فى ذلك ، ولكننى سوف أنجح . أنا لست خياليا يجرى وراء أوهام (**فى قنوط**) أقول لك اننى أمقت هذا المكان ، أمقت سلطتى التافهة . رباه ! اننى لأغرق بورتوريكو كلها من أجل نظرة واحدة الى كاثاى .

لويز : (**مذعورا**) چوان !

چوان : (**بعد فترة ــ فى تهكم**) لا تخف ، فلن أهجر جزيرتك الغالية . ان هذا التفويض الملكى لن يأتى أبدا ... وحتى اذا جاء فان هناك عقبة (**قانطـا ، وقد بدا عليه التعب الشديد**) لقد فات الأوان ، وكاثاى أبعد من أن نبلغها ، والتعب قد نال منى أكثر مما أطيق .

ولقد طال قتالى مع توافه الأمور حتى أصبحت تافها. صدئت روحى فى أغلال عشرين عاما ، فهى اليوم تجنح الى قبول هذه الأغلال طلبا للسلام **(فى حنين عاطفى عميق)** آه لو استطعت فقط أن أشعر بنارى القديمة ، حمية قلبى وعقلى ! لو استطعت أن أكون مرة أخرى ذلك الرجل الذى حارب أمام غرناطة ! ولكن النار تخبو ، فما تزيد على أن تدفىء ارادتى لكى أحلم بالماضى ، وما عادت بقادرة على أن تقدح شرارا يشعلها بالأعمال. **(بابتسامة رثاء حزينة)** لقدبدأت أخشى . . . فشلا آخر .. أنا الآن أكبر سنا من أن أجد كاثاى .

(يظهر مننديز فى المؤخرة ، فى الوقت المناسب ليسمع العبارة الأخيرة ، يرتدى زى الأسقف ويبدو عليه عمره الحقيقى . ولكن ملامح المتعصب المتحمس قد استحالت الآن الى ملامح لاتقل قسوة ، ملامح مدبر المكائد الأريب وقد جعله النجاح راضيا ، ملامح المتآمر القامر الذى يعمل الآن فى رسم سياسة الكنيسة . يقف مترددا يجيل من شخص لآخر نظرة تشكك وتفحص . ثم يتقدم متكلفا هيئة الجذل والابتهاج)

مننديز : ما هذا الذى أسمعه ؟ أنت أكبر سنا . كلا كلا يا چوان ، ما هذا الا قول باطل **(يستدير الاثنان وقد أخذتهما المفاجأة . چوان يحملق فيه فى نفور . ويتبادل مننديز مع لويز انحناءة باردة فيها طابع التنازل ، ثم يتقدم نحو چوان باسطا ذراعيه ، وهو**

يبتسم ابتسامة مداهنة) . أما لى عندك من تحية أيها الصديق القديم ؟

چوان : **(يأخذ بيديه دون تهويل . ثم يقول متهكما)** ومن ذا الذى يتوقع أن يراك هكذا تدخل دون اعلان بعودتك ــ مثل اى راهب مسترق للسمع .

منندیز : **(دون أن يضطرب لهذا)** شوقى لرؤيتك . لدى أخبار عظيمة ، وكثيرا ما تحدثت الى الملك عنك .. وهو الآن يقدرك أعظم تقدير . وكدليل على رضاه عنك فاننى أحمل لك ... **(ثم بابتسامة خبيثة)** ولكننى أعتقد أنه ينبغى الا أقول اننى أنا الذى يحمل اليك ، اذ يجب أن يبقى هذا الشرف لشخص أعلى منى قدرا .

چوان : **(فى نفاد صبر)** أنا أكره الأسرار والألغاز .

منندیز : **(باستفزاز)** سأعطيك اشارة تفصح عن اللغز ، احتراما للشيخوخة التى كنت تبكى عليها الآن . هيىء نفسك لترحب بالشباب ، وبجائزة كنت تتلمسها طوال حياتك فى جزر الهند . جائزة أقرب الى قلبك مما كانت الخمر عند لويز قبل أن يتوب . **(وبهذه الخاتمة اللاذعة ، يستدير)** عفوا اذ أترككم الآن . على أن أعد العدة .. لهذه المناسبة الكبيرة . **(ينحنى وهو يسخر ، ثم ينصرف من جهة اليمين)**

چوان : **(غاضبا)** دساس ، مدبر للمكائد ! **(يذرع المكان جيئة وذهابا)**

لويز : **(بعد أن يفكر لحظة . يقول فجاة)** لقد وجدت السر . لابد أنه التفويض الملكى للقيام بالاستكشاف .

لقد حصـــل عليـــه من الملك ، لأنه يريد أن يتخلص منك هنا . أنت تقف فى طريقه ، بسياستك فى الايمان بالرحمة والتسامح . وهو يريد أن يكون ديكتاتورا مطلق التصرف ليلجأ الى الاســتعباد والتعذيب . ولكنه يخشى أن يحاربك حربا صريحة . وهل توجد خطــة ابرع من أن يبعث بك بعيـــدا وأنت راض ، معترف بالجميل ، مرتش دون أن تدرى ؟

چوان : (**رافضا**) اذن فسأراوغ هذا التعلب . لا ارغام فى مثل هذا التفويض . . . (**وقد اختلط عليه الامر**) ولكن ذلك أعظم أمل لى يتحقق . . . بعد فوات الأوان . (**محاولا أن يتكلم كأنما يعيره أو يتهكم عليه**) ولكن لابد لى أن أجد كاناى ، هذا اذا كان بها ينبوع الشباب ذاك الذى تحدثت عنه .

لويز : أسمع ناسا قادمين . يجب أن اذهب . ان رؤيتهم لنا معا تزيدهم حقدا وضغنا (**يضغط على يد چوان**) كن حازما أيها الصديق القديم ، مهما يحدث (**يخرج من اليسار . يرتفع همس القادمين . يتهالك چوان جالسا على المقعد القائم أمام النافورة ، غارقا فى تفكير حزين ، غافلا عن الينبوع . . . تظهر « بياتريز دى كوردوفا » ، ترافقها وصيفتها ، وحشد من النبلاء يرتدون ملابس فاخرة . بياتريز فتــاة جميـــلة فى الثامنة عشرة أو نحـــو ذلك ، وهى صـــورة ناطقة بالحيوية الفتية والسحر والرشاقة . تصرفهم مشيرة اليهم بالتزام الهدوء . ثم تتقدم نحو چوان ، جاعلة**

النافورة فاصلا بينهما ، وهي تمسك في يدها وثيقة مختومة . وأخيرا تناديه بصوت متلهف مرتجف)

بياتريز : دون چوان ! **(يستدير چوان بسرعة على مقعده ، ويحملق فيها خلال الينبوع ، وتبدو منه صيحة تعجب مفاجئة ، كأنما وقعت عينه على شبح ، ويأسر جمالها عينيه فلا تتحولان عنها . وفجأة تضحك هي ضحكة مرحة ، صافية ، لينة ، ثم تدور بسرعة حول النافورة وتواجهه)** انها أنا يا دون چوان .

چوان : **(يحملق فيها وما زال مسحورا بها . ثم يتذكر فجأة ، فينهض واقفا ، وينحني انحناءة كبيرة بفروسيته الساخرة القديمة)** عفوا . لقد سحرني جمالك . ظننتك روح النافورة **(ثم يتزايد تهكمه)** أيتها السيدة الحسناء ، انك تسبغين على شرفا لا أستحقه .

بياتريز : **(وقد آلمتها لهجته وأربكتها)** ألا تعرفني ؟ عجبا . أنا بياتريز **(ينحني لها من جديد دون أن يبدو عليه أنه عرفها)** ألم ينبئك الأسقف مننديز ؟

چوان : **(في تشكك)** لم ينبئني عنك ، أنت ، شيئا ، ياسيدتي الجميلة .

بياتريز : أنا بياتريز دي كوردوڤا .

چوان : **(ينظر نحوها مخمنا ــ ثم يدهش فيحملق فيها ــ فترة صمت ، ثم ببطء)** ابنة ماريا ! انت !

بياتريز : **(تنطلق بكل ما عندها دون تحفظ)** لقد ماتت منذ عام . وأنا الآن ... في رعايتك . كانت هذه رغبتها الأخيرة . كأن أبي قد مات ، وليس لي من

قريب تستطيع هي أن تثق فيه . وطلبت الى الملك أن يبعث بي اليك هنا . فطلب الى أن أنتظر حتى يقودني الأسقف اليك ، وحملني أيضا هذه الهدية لك ـ قال انها أعز أمنياتك (**تعطيه الوثيقة**)

چوان : (**يبسط الوثيقة ـ تمر فترة وهو يحملق فى الوثيقة دون فهم ، ثم يقول فى مرارة**) التفويض . باكتشاف كاثاى .

بياتريز : نعم . وأنت تستطيع أن تنجح فى العثور عليها بينما فشل الآخرون . انا أعلم هذا . لقد كنت عند أمي المثل الأعلى للفروسية الاسبانية . فارسا حقا من فرسان الصليب . كانت هذه نبوءتها ... ستكون أول من يصل الى كاثاى .

چوان : كانت تتكلم عن الرجل الذى عرفته حينذاك (**محملقا فيها مسحورا ، ثم فى اهتمام وحمية**) انها تبعث الى بك ، وأنت الشباب . أتراها تتهكم على ؟

بياتريز : (**فجأة**) دون چوان : أنا أتذكر شيئا أوصتني ألا أنساه حين ألقاك . لقد قالت « أعطيه العطف والحنان وفاء لدينه على اذ أنقذني من أجلك » . وقالت ان هذه الكلمات سر لا أطلع أحدا غيرك عليه . ماذا كانت تعني بهذا يا دون چوان ؟

چوان : (**وقد تأثر تأثرا عميقا**) العطف والحنان . أتأتين الى بهذا يا بياتريز ؟ (**ثم كأنما قد استعاد نفسه**) كلا ، لاتفعلي . هذا معناه الضعف . هات لى الماضي ، بدلا من ذلك . ردى الى الرجل الذى عرفته أمك .

بياتريز : **(وكانت تفحصه دون أن تعير كلمـاته اهتمـاما)** أنت أكبر سنا مما كنت أحلم به يا دون چوان .

چوان : **(وقد جرح ـ بصوت عنيف أجش)** ليس فى قولك هذا عطف ولا حنان . الشباب ! انه درع من الفولاذ اللامع . سيف وضاء . الضحكات فوق ضـجيج المعركة . **(يرى دهشتها المرتاعة من كلماته فيتمالك نفســه ويضيف فى مرارة حزينـة)** كان ذلك منذ وقت طويل ، يا بياتريز ـ تلك الليلة فى غرناطة ـ انه الآن حلم باهت الذكرى . **(ثم يرتد فجأة وبسرعة مستعيدا أسلوبه المهذب المتهكم)** أغفرى لى ، لقـد أصبحت رجـلا متوحشا لا يذكر آداب السلوك . **(ينحنى ويقبل يدها بكل ما كان له فى شـبابه من شهامة الفرسان)** مرحبابك ياعزيزتى فى بورتوريكو ، فى رعايتى . **(تنظر الى رأســه المنحنية ، فتحمر وجنتاها بالسعادة والارتباك الساذج ، بينما تنزل الستار) ...**

المنظر الرابع

(بعد ثلاثة أشهر — فى مكتب ((مننديز)) الرسمى بالقصر .غرفة واسعة ، عاليةالسقف، خالية من الأثاث الا من منضـــدة ثقيـــلة فى الوسط . الوانها داكنة مقبضة ، تحمل الطابع الكنسى الصارم الضيق الأفق . وفى ركن منها مذبح أمامه شموع مشتعلة ، وعلى الجدران معلقات ثقيلة تحجب ضوء النوافذ المرتفعـــة المقوسة . وفى المؤخرة صليب ضـــخم معلق على الحائط . تبدو الغرفة كلها صورة مكبرة لغرفة راهب ، ولكنها تسبغ على المخيلةتأثيرا قويا مقبضا بما فيها من طابع التركيز .

وللغرفة مدخـــل رئيسى فى المؤخرة ، فى الوسط ، وباب جانبى أصغر الى اليســـار ، تحجبه ستائر .

الساعات الأولى من المساء.مننديز جالس الى المنضدة.يبدو مقطبا، نافدالصبر،يتسمع منتظرا شخصا . يسمع صـــوت خطـــوات تقترب . يستدير مننديز فى مقعده فى تطلع

واهتمام. يدخل «كويسادا » مخترقا المعلقات، الى اليسار، وجهه متجهم يبدو عليه التصميم. يحمل سيفا ومسدسات فوق ثيابه التى دس أطرافها فى أحذية الركوب الطويلة ، وقد غطاه الغبار ، وبدا واضحا أنه قام برحلة ركوب شاقة . ينحنى لمننديز فى احترام)

مننديز : بدأت أظن أنك لن تحضر أبدا . (**ثم فى قلق**) .. ما الأخبار ؟

كويسادا : الاجتماع منعقد . لقد تجمعوا فى القلعة خارج البلدة .

مننديز : عظيم . اذن فالأمور تسير وفق خطتى .

كويسادا : انهم جميعا متفقون على أن دون چوان يجب أن يتنازل عن التفويض .

مننديز : الا اذا أقلع باحثا عن كاثاى على الفور ؟

كويسادا : نعم ، فهم يتحرقون جنونا الى الذهب (**مستهزئا**) ذلك الذهب الذى أطلقت أنا الشائعات بوجوده هناك حسب تعليماتك .

مننديز : وهكذا نتخلص من دون چوان وكل العناصر الساخطة فى الجزيرة بضربة واحدة .

كويسادا : (**متحمسا**) ولكنهم يطالبون أيضا بأن يحرق الهندى « نانو » أولا . انهم يعتقدون أنه قد سحر الحاكم ، ويعلمون بمقابلات نانو السرية مع دون چوان .

منندیز : (فی غضب) من الذی اخبرهم ؟

کویسادا : (**بعد لحظة تردد ـ متحدیا**) أنا .

منندیز : (فی غضب) أیها الأحمق .

کویسادا : (**وقد أدرك الخطر ـ فی تواضع**) ولكن هذا الكلب ما یزال یرفض التعمید المسیحی .

منندیز : (**فی تجهم**) أهذا هو الوقت المناسب لمناقشة قضیة هندی فرد ؟ أیها الأبله . انك تعلم مثلی تماما أننی أهدف الی مهاجمة دون چوان فی قضیة واحدة ، قضیة واحدة فقط ـ هی عدم ابحاره للبحث عن كاثای بعد وصول التفویض الملكی . ما دخل أی « نانو » فی الدنیا بهذا ، سواء أعدم أم لم یعدم ؟

کویسادا : دخل كبیر یا سیدی . لو لم یكن دون چوان قد وقع فی سحر « نانو » لكان قد أبحر منذ زمن طویل .

منندیز : وأنت أنبأت الغوغاء بذلك ؟ فلیسامحك الله . هل كان من خطتی أن تستغل أنت تعطش الغوغاء للدماء ؟ لقد كنت أدبر الأمور من أجل ثورة سلمیة توقظ چوان وتنبهه الی ضعفه وعاره فیبحر . لقد تجاسرت علی اثارة نوع من الجنون كفیل بأن یكتسح ببساطة ، كل السلطات المعترف بها . خبرنی بسرعة .. فی أی حال تركت الغوغاء ؟ (**کویسادا یتحاشی نظراته . فیدق منندیز علی المنضدة بعنف**) أجبنی .

کویسادا : (**مراوغا**) كانوا یشربون الخمر ...

منديز : **(فى ثورة ، وقد سرت فى صوته نبرة الارتياع والاحساس بالخطر)** آه !

كويسادا : **(وقد انكمش الآن تماما)** كانوا يصرخون داعين الى الزحف على القصر . وكان الدون أوفيبيدو يحاول قمعهم .

منديز : **(فى شراسة وازدراء مرير)** أيها الأرعن اللعين . بل أنا الأحمق اذ وضعت فيك ثقتى .

كويسادا : **(راكعا على ركبتيه ــ وقد بلغ به الجبن والانكماش كل مبلغ)** اغفر لى يا صاحب النيافة .

منديز : عملك هذا خيانة لى . وسأعاقبك . عندما تقلع هذهالحملة باحثة عن تلك الخرافة الذهبية ، كاثاى ، فستذهب أنت معها ، ولتخطىء هناك ما شاء لك الخطأ . **(ينهض ويذرع الغرفة متجها الى النافذة فى المؤخرة)**

كويسادا : **(فى مذلة)** أنا أقبل التكفير عن ذنبى ، فى تواضع .

منديز : **(فى مرارة)** انظر الآن الى أول ثمار تجنيها من تقـواك المفرطة . **(مشيرا)** ان الأفق الجنوبى شعلة نار .

كويسادا : **(ناهضا)** لابد أنهم أشعلوا النار فى قرى الهنود .

منديز : الدماء والنيران . رقصتك المرحة تبدأ بداية طيبة . **(ويشد الستار فينسدل)** ليس غير چوان يستطيع أن يمسك الآن بزمامهم ، لو أنه يعدهم بالابحار فورا . ولكن لا ، ان كبرياءه أعظم من ذلك . سيحارب التمرد المسلح الى النهاية . وسنهوى جميعا فى هذا الدمار .

كويسادا : (**باحتقار**) انه لم يعد كما كان — منذ أن سحره « نانو » .

منندیز : (**فى ازدراء**) أيها الأحمق (**ثم فى اصرار**) ومع ذلك فهناك حقيقة فيما تقول . لقد أصبح ضعيفا ، مذ وقع بين تأثير « لويز » وتدخل الفتاة . (**ثم فى اقتضاب**) هيا . فهناك فرصة رغم ذلك . استدع لى دون چوان على الفور . (**ويقول العبارة الأخيرة فى صرخة تدل على صبر نافد**)

چوان : (**من الخارج فى المؤخرة ، وبتهكم**) لا داعى الى أن توفد لى رسولا . (**يدخل . بدت عليه الشيخوخة فى هذه الأشهر الثلاثة . وضح الشيب فى لحيته ورأسه . ومن وراء القناع الساخر المرير فى وجهه يبدو ذلك التعبير عن الصراع العميق المستتر ، بما فيه من ألم وعذاب ، كأنما يخوض معركة مع نفسه**)

منندیز : (**وقد أخذته المفاجأة ، وأشفق مما عسى أن يكون چوان قد سمع**) هل سمعت ؟

چوان : (**باحتقار**) ما صرخت به فقط . هل أنا راهب يتسمع على الناس من ثقب الباب ؟ (**يقول هذا وهو يرشق كويسادا بنظرة**) ولكنى أعرف دسائسك . اجتماع الضباع العاوية هذا . لقد سمعت الشائعات ، كما ترى . أنت تريدنى ان أرحل بناء على مطالبهم ، وبذا تتوافر لك الحرية لتحكم هذه الجزيرة باسم الشريعة المقدسة ؟ أليس كذلك ؟

منندیز : **(ضابطا غضبه)** لقد فقدت رشدك . انت لا تدرك أن الأمور قد بلغت أوج التأزم ، والحكم قد انزلق من بين أصابعك وانت تلهو بدور الأب الحنون .

چوان : **(وكأنما لدغته العبارة الأخيرة ــ فى وحشية)** هذا كذب .. **(ثم متمالكا نفســـه)** أقول لك ثانية ، يا دييجو ، سأرحل عندما أشاء أنا ، لا أنت .

منندیز : **(محاولا اقناعه)** لقد ظللت تكرر هذا القول دائما ، ومع ذلك فان اعتزالك قد جلب علينـــا الدمار ، جنودك وبحارتك يتمردون علانية ، والغوغاء قد ثاروا . **(فى حمية)** چوان .. أترضى بأن يطيح بنا التمرد ؟ ألم تعدهم بكاثاى ؟

چوان : **(فى كبرياء)** أنت الذى وعدتهم بهـــا ، باســـمى ، أيها الخسيس ، لكى تضمن التخلص منى ...

منندیز : **(مستثيرا اياه ، وهو يلحظ بمهارة رد الفعل عند چوان)** لقد وعدتهم بذلك لأننى ظننت أنك ما تزال چوان پونس دى ليون . ولـــكنك لم تعـــد ذلك الرجل ــ لم تعـــد أكثر من عبد يعمـــل من أجل النزوات العاطفية لفتاة . أنت أضعف من أن تقوم بالحكم هنا ، وأضعف من أن تنهض بمشروع كاثاى . **(تمتد يد چوان نحو ســـيفه . منندیز يستمر فى كلامه متجاهلا ذلك)** واذن ، فمن أجل أسبانيا ، اترك منصبك ، وتنـــازل عن تفويض الاكتشـاف لشخص آخر لديه الشـــباب ، والشـــجاعة على المخاطرة .

چوان : **(وقد أهاجه القول فاستل سيفه الى منتصفه)**

حذار يا دييجو . ان المسح الذى ترتديه لن يغفر لك مثل هذه الاهانات .

منندیز : (**فى نبرة تلطف ومداهنة**) اغفر لى يا چوان . انما أهينك من أجل صالحك . فلتمض نحو أكبر انتصار لك . لا تمكث هنا فى ذهول حتى تلحقك الهزيمة المشينة .

چوان : (**وقد اهتز لقوله**) سأرحل . ولكن ينبغى أولا أن أعلم ــ أن أعلم على وجه التحقيق ودون شك ــ أين تماما .. (**ثم يتوقف فجأة**)

منندیز : (**متسائلا**) ماذا ؟

چوان : (**فى تشكك**) لا شىء .

كويسادا : (**الذى كان يصغى فى اهتمام محموم ــ يشير صوب چوان فى لهجة اتهام**) انه يزور « نانو » كل يوم . أنظر الى عينيه . انه مسحور . (**يفزع چوان وكأنما يشعر بالذنب ، ولكنه يحاول تجاهله فى احتقار**)

منندیز : هدوءا يا كويسادا . (**ينظر الى چوان**) هذه المقابلات غامضة يا چوان .

چوان : (**بسرعة ــ يستدير نصف دورة متجنبا عينيه ــ محاولا أن يبدو غير مكترث**) أنا فى حاجة الى معلومات دقيقة فى رحلتى لا يستطيع أحد أن يقدمها لى غير « نانو » . ولهذا تأخرت .

منندیز : (**ناظرا اليه بحدة**) هكذا ؟ لقد ظننت أن محبتك لبياتريز هى التى عاقتك ؟

چوان : (**فى عنف**) كلا ..

منندیز : **(باهتمام)** ولم هــذا العنف ؟ هــذا أمر طبيعى جدا . لقد كنت تعيش وحيدا . فاذا ما وجدت ابنة ، فى شيخوختك ..

چوان : **(وقد امتقع وجهه غضبا وألما)** ابنة ؟ كيف يمكنها أن تنظر الى كـ ...

منندیز : **(مهدئا ولكن بنبرة فيها اصرار على الاغاظة)** كانت تنظر اليك دائما باعتبارك بطلهــا . باعتبارك الآمر العظيم فى حياتها . لابد أنها تعجب الآن من ضعف الشيخوخة فيك .

چوان : **(فى اهتياج)** أتجرؤ على اغاظتى باسمها ؟ سأرحل ، أقول لك سأرحل ، ســأرحل فى أول يوم بعد أن أتبين ... **(وقد سرح خاطره . يبدو وقد اهتز)** كفى يا دييجو . سأفعل ما أريد ، وفى الوقت الذى أريد . **(ينــدفع خارجا من المؤخرة كأنما تطارده أرواح شريرة . ينظر منــديز وراء چوان بينما تظهر على وجهه ، تدريجيا ، ابتسامة تهكم ورضى ، كأنما ثبت له الدليل على شىء)**

منندیز : **(متحدثا الى نفسه والى كويسادا فى نفس الوقت)** كان ينبغى أن أخمن هذا من قبل . ولكن من كان يتصور ... انه مسحور ، بالتأكيد .

كويسـادا : **(بحماس)** نعم .

منندیز : **(بجفاف)** ولـكنك لا تلقى اللوم على الســاحر الصحيح . الســاحر المسئول لا ذنب له **(يفتح كويسادا عينيه حائرا فى فهم هذا اللغز . منندیز**

يفكر هنيهة ثم يلتفت الى كويسادا) أحضر الآنسة بياتريز .

كويسادا : نعم ، يا صاحب النيافة . **(ينحنى ويخرج ، من اليسار . يجلس مننديز مفكرا . ويبدو عليه أنه يرسم خطة حملته . وبعد لحظة تدخل بياتريز وتنحنى أمامه باحترام)**

بياتريز : **(فى تحفظ)** هل طلبت رؤيتى يا صاحب النيافة ؟

مننديز : **(يومىء برأسه ويشير الى مقعد . ويتفحص وجهها لحظة فى تمعن ، ثم يبدأ بلهجة ساخرة مداعبة)** لم يدع الجمال شيئا قائما فى مكانه فى طروادة القديمة . هل أنت هيلين أخرى يا بياتريز ؟

بياتريز : **(مرتبكة)** أنا ... لا أفهم .

مننديز : **(فى برود وجفوة)** لا تفهمين أن الثورة تغلى فى بورتوريكو ؟ ثورة ستطيح بنا جميعا ..

بياتريز : **(حائرة)** ثورة ؟ **(ثم فى حيوية)** من ذا يجرؤ على الثورة فى وجه دون چوان ؟

مننديز : **(مقللا من شأنه)** چوان لم تعد له قوة . جنوده أنفسهم قد ثاروا عليه . انه يواجه الدمار . هل تفهمين ؟ ليت لى كلمات من نار فأدمغ بها عقلك . أنا أقول لك ، وضميرى شاهد على ما أقول ، وبصفتى قسيسا من قساوسة الرب ، انك أنت المسئولة ...

بياتريز : **(مصعوقة)** أنا ؟ أنت تمزح .. **(ثم فى استياء مترفع)** أنا أؤذى دون چوان وهو أبى الثانى ؟

مننديز : **(يبدو وقد أصبح حيال غضبها أكثر برودا)** وكان

لك أكبر الاثر فى تحويله الى الطراوة والتحلل من الصرامة .

بياتريز : (**ساخطة**) تعنى لأننى كنت أشفق على الهنود من العذاب ؟

مننديز : (**فى جفاف**) فلنحكم على شفقتنا بنتائجها . هؤلاء الوثنيون لم يعودوا يعرفون الخوف . انهم يتحدون عقيدتنا المقدسة ، ويهزأون بالتعميد المسيحى . هؤلاء الهنود يهجرون العمل . واذ يقضى دون چوان وقته معك ، فانه لم ينس واجباته فى الحكم فحسب ، بل نسى أيضا قسمه بأن يبحث عن كاثاى . لقد طال انتظار الجنود والبحارة دون عمل . فهم الآن لا يوقرونه كقائد شجاع سيقودهم الى المجد ، بل يحتقرونه ، ويعتبرونه مدعيا ومماطلا ، لأنه فقد الشجاعة على الحرب والعمل — وهكذا دبروا مؤامرتهم . هذه هى الحقائق . فهل تنكرين أن تأثيرك كان قويا عميقا عمق الجذور ؟
(بياتريز وقد أخذتها قسوة هجومه فلم تعد تعرف كيف تجيب ، فيتحين هو ذلك ليمضى) وهل تستطيعين أن تنكرى أن تغيرا كبيرا طرأ على دون چوان منذ وصولك ؟ لا يمكن طبعا أن تغفلى عن ملاحظة هذا . . .

بياتريز : انه يبدو فى بعض الأحيان كما لو أصبح خائر العزيمة .

مننديز : (**فى عنف**) خائرا ، مشلولا . تشرد أفكاره كأنه رجل هرم . أعتقد أن قواه العقلية فى اضمحلال .

بياتريز : (**فزعة**) كلا . . . كلا . . .

منديز : لابد أن تواجهى الحق . (**فى عنف**) عندما ينتزع الطموح من رجل مثل دون چوان ، فان مثل هذا الرجل يذوى وينتهى . لقد جعلته ينسى كاثاى . لماذا ؟ لماذا لم تحثيــه على الذهاب ، لصالحـــه هو ؟ عندما جلبت له التفويض الملكى كنت تحلمين به كما يحلم هو بنفسه ... فاتحا وبطلا ...

بياتريز : (**فى تردد**) قال لى الأب لويز اننا يجب أن نبقيه هنا، والا راحت كل أعماله الطيبة هباء ...

منديز : ان هذه الثورة ستطيح بأعماله الطيبة فى ساعة واحدة. (**ثم ملاطفا**) الأب لويز رجل طيب .. ولكنه أعمى. وأنت فتاة ، ولا تجربة لك . تعالى (**يتريث وهــو يرقبها بتمعن، ثم يأخذ بيدها ويسير بها الى النافذة، ويزيح الستار**) أنظرى ..

بياتريز : (**صرخة فزع**) آه ...

منديز : هل صدقت الآن أن الثورة قائمة ... وأنها خطــر على چوان ؟

بياتريز : (**مرتاعة**) النار ...

منديز : والقتل ... فى القرى الهندية . أنظرى الآن ماذا فعلت شفقتك عليهم . ولن يقف الأمر عند هذا . ان هذه الا أول شرارة للثورة . سيزحفون علينـــا بعـــد ذلك ... (**بلهجـــة مؤثرة**) بياتريز ، أنت تستطيعين انقاذ دون چوان . انه يحبك .. كابنته ... ادفعيه الى الرحيل فورا .. أيقظى البطل فى أعماقه . ردى اليه العقل والرشاد . انه صـــديقى القديم ، وأنا أضرع اليك من أجله يا بياتريز .

بياتريز : (**مبلبلة الخاطر**) نعم .. نعم .. ولكن أعطني مهلة لأفكر .. لأصلى طالبة الهداية (**وتركع أمام المذبح**)

مننديز : (**فى نفاد صبر**) لم يعد هناك وقت ... (**تسمع ضجة أقدام مسرعة . ويدخل أوفييدو منتعلاحذاء الركوب ، ويغطيه الغبار ، ويشى وجهه بملامح القلق والاحساس بالخطر**)

أوفييدو : (**دون ان يتوقف ليرى من هناك ــ ينفجر**) ديجو، لقد حاولت أن أكبح جماحهم ، ولكنهم جنوا . انهم يزحفون على البلدة .. چوان سيضيع ...

مننديز : (**مخاطبا بياتريز التى استدارت فى فزع**) أتسمعين؟

أوفييدو : لقد جاء الوقت للتخلى عن هذا الأحمق المريض... ينبغى أن نقود هذه الثورة صراحة .

بياتريز : (**تنهض واقفة وتواجهه ــ وعيناها تومضان**) جبان ! (**يتراجع ويده على السيف، وهو يحملق فيها**)

مننديز : (**فى اهتمام**) اذهبى يا بياتريز .. (**تمر باوفييدو وهى ترشقه بنظرة ساحقة ، وتخرج ، من المؤخرة. يلتفت مننديز الى أوفييدو بابتسامة تهكم ، ولكن فيها قلق أيضا**) لو أنها تتحدث الى چوان كما تحدثت اليك ، لانتصرنا بالرغم من كل شيء يا صديقى .

ستار

المنظر الخامس

(زنزانة ((نانو)) ـ وهى كهف دائرى الشكل جوفته الطبيعة فى الصخور ، وشقته يد الانسان فى موقعه تحت مبنى الحكومة . والمكان ضيق ، ولكنه مرتفع ذو شكل أسطوانى . بضع درجات منحوتة تؤدى من الأرض فى المؤخرة الى باب فى أعلى . الرطوبة تبلل الجدار المرتفع . الى اليمين أريكة صغيرة . مصباح على احدى الدرجات السفلى . وفى الوسط يقف جندى متين البنيان ، بادى الشراسة ، قد شمر أكمام قميصه عن عضلات ذراعيه ، ينفخ بمنفاخ على فحم فى موقد وقد تأجج احمرارا وبدت فيه عدة قضبان من حديد . وعلى الحائط فى المؤخرة يرى نانو معلقا ، وذراعاه فوق رأسه ، وقد قيد من رسغيه بسلاسل مثبتة فى الصخر ، ولا تكاد قدماه تمسان الأرض . رأسه الآن متدلية على أحد جانبيه كأنه فى نصف وعيه ، وجسمه نحيل ضامر .

الباب مفتوح ينفذ منه بصيص دائرى من الضوء الباهت على الدرج . ويحتجب هـذا الضوء اذ يهبط شخص داخلا من الباب هو دون چوان .

يغلق الباب خلفه ويهبط، ثم يتوقف عندما يصبح فى مواجهة رأس نانو ، وينحنى عليه محدقا فى وجه الهندى . فيفتح هذا عينيـه وتتصلب رأسه فى كبرياء فوق كتفه . يحدق كل منهما فى عينى الآخر . ويرخى چوان عينيه شاعرا بالذنب ، ويبتعـد عنه ويهبط الى الأرض حيث يقف الجنـــدى فى هيئـة ((الانتباه)))

چوان : **(بصوت أجش)** هل تكلم ؟

الجندى : ولا كلمة واحدة يا سيدى .

چوان : اذن فأنت لم تطع ...

الجندى : **(مشـيرا الى قضبان الحـديد فى النـار)** حاولت معه كل الوسائل التى اعرفها .. ولكنه مصنوع من فولاذ ..

چوان : **(ينظر الى ((نانو)) بكراهية عميقة)** أيها الكلب .. **(ثم يستدير الى الجندى)** اذهب وتول الحراسـة فوق ..

الجندى : نعم يا سيدى **(ينحنى ليلتقط الموقد)**

جوان : (**بصوت أجش**) كلا .

الجندى : (**يرمقه بنظرة وقد فهم مرماه**) كماتشاء ياسيدى.
(**يصعد الدرج ويفتح الباب ، ثم يختفى تاركاالباب ينغلق وراءه . يتهالك جوان على الأريكة الحجرية فى اليمين ، ثم يحدق الى أعلى صوب نانو الذى يرد نظرته بنظرة تحد لا يلين . فترة صمت**)

جوان : (**وعيناه الآن تنظران الى الأرض فى بلادة ـ مخاطبا نفسه بصـــوت نصف مرتفع**) دييجـــو لم يكذب ، فالعاصفة تتجمع (**فى يأس مرير**) ماذا يهم؟ أستطيع أن أبتهل الى الله أن يحـــــدث طوفان يفنى الجنس البشرى.. لولا بياتريز. (**يزمجر ثم يرفع عينيه من جديد صوب « نانو »**) لماذا تنظر الى ؟ لا أستطيع ابدا أن أقرأ ما فى عينيك ، انهما تريان عالما آخر.. ماذا تكون انت ؟ أنت لحم ودم ، ولكن ليس مثل لحمنا ودمنا . أم أنت من طين ؟ أنا أجيء بعد ذلك ـ أو قبله ـ ولكننى ضائع ، أعمى ، فى عالم تزوغ فيه عيناى على الأمور السطحية دون أن تنفذ الى الأعماق . أى قيم تمنحك قوة الحياة ؟ أجب ؟ لابد أن أعرف الألفاظ التى أستطيع أن أتوسل بها (**الهندى صامت لا يتحرك . فترة صمت . وفجاة كانما تذكر ، يقفز ناهضا فى حمى من نفاذ الصبر**) أجبنى أيها الكلب. لابد أن أجـــد العزيمة على العمـــل ، والا فالعـــار فى انتظارى ...

نانو : (**فى وقار ـ بصوت ضعيف**) ان الآلهة غضبى .

چوان : **(بفرح عامر)** تتــكلم أخيرا .. نانو ، لمــاذا بقيت صامتا وأنا أتوسل اليك .

نانو : لقد أصمت الآلهة أذنيك .

چوان : **(ماضيا فى حديثه وقد تملكته أفكاره ، دون اعتبار لشىء)** چوان پونس دى ليون يعذب أسيرا لا حول له ... لماذا دفعت بى الى مثل هذا العار ؟ لماذا لم تجب على سؤالى ؟

نانو : **(باحتقــار)** لقد تعب لسانى . لقد ظللت شــهرا بأكمله أجيب على أسئلة كل يوم .

چوان : **(فى عنف)** ولكنك كذبت . قل لى الصــدق الآن . أين الينبوع ؟

نانو : **(دون اكتراث، مغمضا عينيه)** الآلهة وحدها تعلم .

چوان : نفس الأكذوبة ! لقد أنبأتنى أولا ان رجال قبيلتــك السابقة كانوا يعلمون . لابد أنك تعلم . هذا هــو انتقامك ... لموت زوجاتك وأطفالك . أينبغى أن أقسم لك ثانية انهم قتلوا رغم أوامرى الصارمة ؟ هيا انسهم . سأمنحك من تشاء من كل نسائك فى الجزيرة ، سأمنحك حريتك . ســألتمس من الملك الانعام عليك ... سأعيد اليك أرضك . أى شىء لو أجبتنى . **(يظل نانو صامتا . يطلق چوان صرخة هائجة ثم يندفع الى الموقد ويأخذ قطعة فحم متأججة بالملقط ويمسك بها أمام عينى الهندى)** أيها الكلب ، سأحرق هذا الازدراء من عينيك ... **(يحــملق الهندى فى الفحم المحمى دون تأثر . چوان يتركهــا تسقط على الأرض وهو يئن بزمجرة بؤس يائسة)**

غفرانك . المغفرة بحق المسيح .. انه أنت الذى تعذبنى . نانو ، أنا أحترق كأننى فى الجحيم . أنا أحب ... (ثم يتوقف فجاة ، وقد جمد يأسا بـ فى ملامح الهندى من عدم اكتراث عنيد لايتزحزح ، ويلقى بنفسه على الأريكة فى جمود من فقد الشعور، وفى النهاية يستل سيفه ببطء ويتحدث كأنه ميت) اما أن تتكلم، واما أن تموت . أقسم على ذلك .

نانو : (فى ترفع واحتقار) ما هو الموت ؟

چوان : (فى بلادة) أنا أيضا سأموت . لعل فى القبر سلاما وسلوى (بعد فترة صمت) أنت أحمق يا « نانو » . لو قبلت مساعدتى لجعلتك مرشدا للأسطول تقودنا الى بلادنا ، فاذا عثرنا على الينبوع اصبحت حرا ، ولن يصيب قومك أذى . أما تشعر بالحنين أبدا الى موطنك ؟

نانو : (الذى كان يسمع وقد أثير اهتمامه) الوطن ؟ أرض الأزهار ؟ وطنى ، بلد المحاربين العديدين (بعد صمت) ستدعنى أرشد القوارب الطويلة المجنحة ... الى وطنى ؟

چوان : (فى اهتمام) نعم (فى ترقب شديد) اتساعدنى ؟ قل لى (وقد قفز الآن واقفا على قدميه)

نانو : الآلهة وحدها ... (يمنع نفسه فجاة فى اقتضاب)

چوان : (فى سورة غضب) آه ! (ويرفع سيفه كأنه سيغمده فى صدر الهندى)

نانو : (ناظرا فى عينى چوان دون أن يلحظ التهديد)

ان ألسنة الشياطين البيض زائفة . كيف لى أن أثق بكلمتك ؟

چوان : أقسم لك يمينا مقدسة **(يرفع يده)**

نانو : الهكم اله أكاذيب .

چوان : **(فى وحشية)** أقسم بالهك اذن . . ما دام الهى قد تخلى عنى .

نانو : **(يرفع رأسه ، ويغمغم بعض الأدعية كأنما يطلب مغفرة — ثم ينظر الى چوان بانتصار وحشى)** سأرشدكم . . ولكن تذكر أن الطريق طويل .

چوان : **(فى انتصار)** أخيرا . ماذا يهم طول الطريق أو مشقتها . **(رافعا ذراعيه)** آه ، قسما بدم المسيح ، اننى لأشعر بالفعل ، بحياة جديدة ، ارادة الحياة . أستطيع الآن أن اغزو . **(دقة بمقبض سيف على الباب ثم ينفرج مفتوحا)**

الجندى : عفوك يا صاحب الفخامة .

بياتريز : **(تنادى عليه من فوق)** دون چوان . دون چوان .

چوان : **(منتشيا فرحا)** صوتها . هذا فأل حسن **(يهرول صاعدا الدرج)**

نانو : **(رافعا عينيه ثانية نحو السماء — فى حمية دينية)** أيها الروح الأكبر . اغفر لى كذبتى . سيكفر دمه عن ذلك .

ســـتار

المنظر السادس

(نفس المنظر الثالث ــ فناء قصر الحاكم ــ غسق خانق . السماء ملبدة بالسحب . صوت بياتريز ــ من اليسار ــ ينادى من أعلى كما حدث فى نهاية المنظر السابق)

بياتريز : دون‌چوان . دون‌چوان . **(يسـمع صـوته يقول « بياتريز » . تدخل ممتقعة مضطربة وتجرى الى المؤخرة تبحث عن آثار التمرد والثورة ــ ثم تسرع عائدة فى الوقت المناسب لتلتقى بچوان ، الذى يدخل من اليسار . هو فى حالة تحمس وتوتر . وجهـه بالغ الامتقاع ، وعيناه تومضان وميضا عنيفا . وما يزال سيفه المسلول فى يده . تتراجع هى الى الخلف وقد راعتها هيئته)**

چوان : **(فى نبرة متوترة مرتفعة)** أهو الينبـوع الذى كان ينـادينى ، أم أنت يا بياتريز ؟ بل أنت ، لأنك أنت الينبوع . **(يأخذ بيدها فى اندفاع ويقبلها)**

بياتريز : **(فى تعجل)** جئت أحذرك .

چوان : **(بنظرة حادة)** تحذريننى ؟ اذن فقد قابلت ديجو؟ آه . .

(يشير بسيفه اشارة احتقار ، كأنما يطــرح ثورات الدنيا كلها جانبا) عندما تأتى الساعة فسأكون رجلا قويا. ان العزيمة تتنفس فى جوانحى من جديد. انسى كل شىء آخر يا بياتريز . أخبرينى بما يجــول فى خاطرك . هل كنت سعيدة هنا معى ؟

بياتريز : **(لا تدرى ماذا تقول أو تفعل)** نعم . نعم . **(محاولة العودة الى مهمتها)** ولكن . . .

چوان : لقد جئت الى نعمة .. نعمــة كانت نقمة على . **(باقتضاب)** أما لاحظت كم كبرت فى السن ؟

بياتريز : **(مقتنعة انه فقد رشده ـ مصرة على أن ترده اليه ـ خائفة ، ولكن مشفقة)** تستطيع أن تعود شابا من جديد .

چوان : **(منتشيا)** سافعل **(ثم فى غموض)** هذا عالم غريب، ما تزال به أعاجيب كثيرة لم تكتشف بعد .

بياتريز : **(ترى الفرصة سانحة لتدلى بما عندها ـ بسرعة)** اذن فاكتشفها . سيجعلك البحث شابا .

چوان : **(بعمق وقد أثير تفاؤله)** من شفتيك انت ! هذا فأل طيب آخر **(بلهفة)** فلنفرض أننى شاب .. فمــاذا بعدئذ ؟

بياتريز : عجبا ، بعد ذلك تصبح سعيدا .

چوان : **(بقوة)** هل تعدينني ؟ أما أحببت أبدا ؟

بياتريز : **(حائرة)** أحببت ؟

چوان : ما دمت تتحدثين عن السعادة .

بياتريز : أحببت أمى .. وأبى .. وأحبك أنت يا دون چوان .

چوان : **(فى نهم)** آه ، قولى هذا ثانية . هذه الكلمات دماء لقلبى .

بياتريز : **(فى جد واهتمام)** احبك كما كنت أحب ابى .

چوان : **(فجأة ، وقد جرحه ذلك على الفور)** الم يتسلل الحب الى احلامك قط ؟ لست راهبة . هيا ، حدثينى عن صورة الرجل الذى تحلمين به حبيبا لك .

بياتريز : **(وقد قررت أن تتخلص من هذا الموقف بالمداعبة)** هذا سر خطير .. هل انت مصمم ؟ حسن ، اذن فهو شبيهك **(يطلق چوان صرخة سعادة ويميل نحوها . وتضيف هى مسرعة)** أنت كما وصفتك أمى فى الحرب أمام غرناطة .

چوان : **(بمرارة)** عندما كان لى الشباب . ولكننى كنت أحب المجد وحده حينذاك . ألم تنبئك هى بذلك ؟

بياتريز : بالطبع ، ولهذا قالت لى امنحيه الحنان والرحمة .

چوان : **(فى حزن)** لقد حققت رغبتها .. أم تراه كان انتقامها ؟ **(ثم فى اقتضاب)** وماذا اذا أصبحت أنا نفسى ذلك الشبيه ؟ فارس غرناطة ومعه منحتك من الحنان والرحمة ؟ ماذا اذن ؟

بياتريز : **(وقد أخافتها غرابته)** آه ، أنت الآن تمزح يا دون چوان **(تغتصب ضحكة)**

چوان : **(بانفعال)** كلا يا بياتريز **(تبتعد عنه مدفوعة بعامل غريزى . يهدىء هو نفسه)** كفى هذا الآن . انى أخاف ضحكك . فلنبدأ من النهاية أولا ، وعندئذ لن تضحكى . أنت ... **(محاولا أن يقرأ ما يجول فى**

عينيها اللتين اكتسبتا غموضا ـ يعـذبه الشـك)
ماذا ستفعلين ؟

بياتريز : **(متغلبة على تهيبهـا ـ بنبرة اقناع رقيقة)** أنت مريض يا دون چوان . هل لك ان تصغى الى العلاج الذى أقدمه لك ؟

چوان : نعم .

بياتريز : **(بحمية)** أبحر واكتشف كاتاى .

چوان : **(مأخوذا ، معذبا)** أنت أيضا تحكمين على ، ولكنى أقسم لك اننى طالما تمنيت أن أبحر . لقد كرهت جبنى . لقد قمت بدور الخائن لكل حلم وكل أمل عظيم . ولـكننى يا بياتريز عندما أرحل سأترك حياتى ورائى معك . ولذلك كنت ـ الى أن علمت ـ أخشى أن افقد ما لدى **(ثم يتغير بسرعة الى شىء يشـبه قرارا منتصرا)** ولـكن هذا قد مضى . وعزيمتى قد بعثت الى من الموت . بعثتها شفتاك . سأرحل على الفور .

بياتريز : أوه ، أنا سعيدة .

چوان : **(فى حزن)** سعيدة اذ أتركك ؟

بياتريز : بل سأكون حزينة وسـأشعر بالوحدة . ولـكن لصالحك أنت ...

چوان : عدينى بمنحة واحدة .

بياتريز : **(فى اهتمام)** أى شىء ؟

چوان : عدينى ألا تتزوجى حتى أعـود .. أو تسـمعى أننى مت .

بياتريز : **(مرتبكة)** لم أفكر فى الزواج اطلاقا .

چوان : **(فى جد شـديد رغم المجهود البائس الذى يبذله ليسبغ على صوته رنة المزاح)** الى أن أقدم اليك شبيهى ؟

بياتريز : **(وقد ارتاح بالها فتضحك فى سـهولة)** قد أغير رأيى عندئذ يا دون چوان .

چوان : هل لك أن تختمى هذا الميثاق بقبلة ؟ **(يغتصب ابتسامة ليخفى تحرقه)**

بياتريز : **(دون ترحيب ــ تغتصب ضحكة)** نعم يا دون چوان **(ترفع وجههـا نحوه ويهم بتقبيلهـا على شفتيها ، ولكن شيئا فى وجهها يوقفه ، فيقبلها فى وقار على جبهتها ــ يحمل نفسه على الابتسام)**

چوان : هكذا على جبهتك ، للذكرى . أما الأخرى ــ قبلة الحنان ــ فما تزال وعدا لأحلامى **(تسمع ضجة أقدام متعجـلة ، ويبتعد چوان عن بيـاتريز فى شـعور بالاثم . يدخل لويز فى المؤخرة . وجهه مضطرب ملىء بالقلق والشعور بالخطر)**

بياتريز : **(تحييه باهتمام ، وهى سـعيدة بدخوله الآن)** الأب لويز .

لويز : چوان . أنا أحمل اليك أنباء فظيعة **(يرى سيف چوان مسلولا)** آه أنت تعلم اذن . لقد حان الوقت لكى تشرع سيفك .

چوان : **(فى ازدراء)** أتعنى فتنة الرعاع ؟ عندما أقول لهم ان الأسطول سيبحر غدا ..

لويز : أتعطيهم « نانو » ليحرقوه ؟ هذا مطلبهم الأول .
(تطلق بياتريز صرخة ارتياع)

چوان : **(مأخوذا ـ غير مصدق)** أسلم « نانو » ؟ لا . هذا مستحيل . أنت سمعت اشاعات . . .

لويز : لقد ألهب « كويسادا » قسوتهم الى حد الجنون . **(يشير الى حيث يرى وهيج أحمر يصعد الى السماء)** أنظر . انهم يحرقون الحى الهندى . رحمتك يا رب .

چوان : **(فى ثورة غضب)** يقتلون نانو ؟ الكلاب . سآمر فصيلة من حرسى . .

لويز : **(ينظر اليه فى رثاء)** ان حرسك على رأس الغوغاء. **(مؤنبا)** چوان . چوان . لماذا تعيش فى حلم ؟ لقد حذرتك مرة بعد مرة . لو لم يكن لك من الحاكم الا اسمه ، فان . . .

چوان : **(متهاويا على الأريكة ـ فى غباء)** استدع الحرس . لابد أن آمرهم بالتفرق .

بياتريز : **(فى رثاء)** ان عقله مريض . .

لويز : **(فى شىء من الحزم)** هل لك أن تتركينا يا بياتريز ؟

بياتريز : **(مطيعة)** نعم يا أبتاه . **(ثم فى حماس)** لابد أن أقابل الأسقف مننديز . **(وتسرع بالخروج الى اليمين)**

لويز : **(يتقدم ويربه على ظهر چوان ـ فى تجهم)** چوان ، استيقظ . أستحلفك بالله .

چوان : **(يقفز واقفا متهيئا للقتال)** سأحمى حياته بحياتى.

لويز : لكى تعذبه أنت بنفسك ؟

چوان : **(بعنف يخالطه شعور بالذنب)** كذب . **(متشككا ـ باستياء)** هل قابلته .؟ لقد أصدرت أوامر . .

لويز : لقد مضت عدة أسابيع منذ صدر لى الاذن برؤيته. وكنت أنت تتحاشى مقابلتى ... فلماذا ؟

چوان : (**بصوت أجش**) لأننى لا أطيق محاولتك ادخاله فى المسيحية . أريد نانو كما هو .

لويز : لأنك تفضل أساطيره الوثنية .

چوان : (**مانعا نفسه من الانفجار غضبا**) أساطير ؟ فيم الأساطير ؟ ان كاثاى موجودة هناك (**ويشير**)

لويز : لم أكن أتكلم عن كاثاى . أنت ستبحر غدا . هل معنى هذا أنك استطعت أخيرا أن تنتزع من عذاب هذا الهندى البائس ايمانا بالينابيع السحرية ؟

چوان : (**فاقدا سيطرته على نفسه ـ هائجا**) أيها الأحمق. انت مثل هؤلاء الأغبياء الذين هبوا فى وجه كولمبس واتهموه بالكفر عندما قال لهم ان الأرض كروية . اصغ الى . أنا لا أصدق « نانو » . ولكنى أؤمن بالطبيعة . ان الطبيعة جزء من الله . انها قادرة على الاتيان بالمعجزات . ونحن ، منذ اكتشفنا هذه الأرض ، أما وجدنا عجائب لم نكن نحلم بها من قبل ؟ ان ما جاء فى قصة « نانو » صادق بالنسبة للحقائق التى نعرفها . ان وطنه قارة جميلة . أرض ازهار على حد تعبيره . الا تعرف كاثاى هى أيضا باسم (الأرض المزهرة) ؟ وهناك مدن عظيمة مسورة ، سقوفها من الذهب ، تقع فى الداخل غربا . أليست هذه ، دون أدنى شك ، أرض ماركوبولو ؟ والينبوع موجود فى كاثاى . كل الأدلة من كل ناحية فى العالم تثبت ذلك . وسأجد الينبوع .

لويز : (فى رثاء) ولكن هذا الدليل مجرد خرافة ، اسطورة ، او احلام شعراء .

چوان : (فى هياج) هل جعل منك الصوم والصلاة أحمق غبيا ؟ ماذا كان لدى كولمبس من أدلة ؟ وأنت .. أنت تؤمن بأن المسيح عاش ومات . هل تحدثت الى أناس رأوا المسيح فى الاصطبل أو على الصليب ؟

لويز : چوان ... هذا كفر !

چوان : (فى يأس مرير) اذن فليكن ذلك . لقد صليت لله عبثا .

لويز : چوان !

چوان : (واضعا كل قوة ارادته فى الكلمات) الا فلأكن ملعونا الى الأبد ، على أن تمنحنى الطبيعة الشباب فى هذه الحياة الدنيا مرة ثانية .

لويز : (مرتاعا) چوان ، أنت تتحدى ربك .

چوان : لا اله الا الحب — ولا جنة الا الشباب .

لويز : (ينظر بامعان الى وجهه المعذب فيتبين الحقيقة فجأة ، ويقول فى نبرة رثاء عظيم) اذن فهذا هو الأمر .. لقد كنت أعمى . كنت أظن أن حبك قد رأى فيها .. طفلة .. ابنة .

چوان : (بقوة) طفلة .. اجل ، ولكن لفترة .. الى أن كان ذات صباح حين كانت واقفة الى جوار الينبوع ، فوجدت فيها امرأة ، بل أكثر من امرأة . كانت روح الشباب ، والأمل ، والطموح ، والقوة على الحلم ، والجرأة . كانت كل ذلك الذى فقدته أنا . كانت الحب ، وجمال الحب . فأحببتها .

أحببتها بكل ما فى حب الشباب الأول من عنف . . وكان الشـــباب قد مات . أواه . . . أعترف أنها كانت حمــاقة فظيعة . قلت لنفسى أننى عجوز أحمق . وتعذبت مع الملعونين فى الأرض . عشت فى الجحيم محروما من نعمـــة الموت . وأحببتهـــا أكثر . . وأكثر (**تهوى رأسه فى يديه ، ويهتز بدنه كله فى أنين عميق**)

لويز : (**وقد غلبته الرحمة فيقول بصوت مرتعد**) ايها الصديق القديم ، فليشملك الله برحمته . (**وتقطع عليه الحديث بياتريز داخلة مسرعة من اليمين**)

بياتريز : (**فى غضب**) الأسقف مننديز يقول انه لا يستطيع أن يفعل شيئا ، وانه يجب عليك ان تسلم «نانو» . (**وتسمع من بعيـــد ضوضاء جمهرة من الرعاع تتقدم . بياتريز فزعة**) هل تسمع ؟ دون چوان . . ستنقذه أليس كذلك ؟

چوان : (**يرفع بصره محملقا ، ويقول فى صوت يختلط فيه الغضب بتوقع الخطر**) لابد أن أنقـــذه . (**يصغى الى الضوضاء المتزايدة . وعند ذاك يتصلب بدنه كه فى اصرار وتحد . ويرتد فى لحظة واحدة قائلا من جديد**) أيتها الطغمة من الجبنـــاء ! (**يقفز الى المدخل فى اليسار ، ويصرخ فى جندى الحراسة**) أحضر نانو . (**يعود الى حيث وقف لويز وبياتريز ، ويدير بصره فى الفناء كأنما يحدد موقعه**) سأواجههم هنا . اذهب بعيدا ببياتريز يا لويز .

بياتريز : أود البقاء معك .

مننديز : **(يدخل من اليمين)** چوان . **(يرى سيفه مسلولا ـ متوقعا الخطر)** ماذا ؟ هل تتحداهم ؟ اذن فأنت هالك لا محالة . أنصحك أن ترضخ لهم . سلم « نانو » للعدالة .

(فى أثناء كلامه يدخل الجنود حاملين ((نانو)) . وهو الآن أعرج متعب)

چوان : **(فى احتقار هائج)** مرحى أيها الأسقف الأعظم ؟ أسلمه .. هه ؟

منندير : چوان .. أنت مجرد من التقوى **(فى غضب)** هذا كفر .. أن تقرن هذا الكلب الهندى .. أنت تهزأ بمخلصنا المقدس . ملعون أنت . وأنا أنفض يدى منك .. وسينفذ قضاء الرب . **(يستدير ويعود راجعا الى الدار من الخلف)**

لويز : **(عندما ترتفع صيحة من الجمهرة)** چوان . اهرب . ما يزال هناك وقت .

چوان : أهرب من أبناء آوى. هل مات احساسى بالشرف ؟

لويز : **(اذ يسمع من الخارج ضجة عنيفة)** هم الآن على الأبواب الخارجية . تعالى يا بياتريز . أستحلفك بالله . **(تناضل . ولكنه يفلح فى الابتعاد بها حتى المدخل فى اليمين . وتسمع آخر ضجة تحطيم عندما تنهار البوابة الخارجية . وبعد لحظة تتدفق طليعة الغوغاء ــ وكلهم من الرعاع . بعضهم يلوح فوق الرءوس بمشاعل . وجميعهم مسلحون بالفئوس والمدى ومختلف ألوان الأسلحة الغليظة التى التقطوها أو سرقوها)**

چوان : **(يزأر آمرا)** الى الوراء . **(يترددون لحظة . ثم يرون « نانو » فيندفعون اليه فى صرخات مجنونة دائرين حول النافورة . يقفز چوان لملاقاتهم ، ويضرب ، ويطيح بسيفه ، فيقتل أو يجرح أربعة من المتقدمين يسقطون على الأرض . يتراجع الباقون خائفين مرتاعين . فى هذه اللحظة تتدفق بقية الغوغاء من المؤخرة ، متزاحمين متدافعين ، وهم يمثلون جمهرة متباينة تضم نبلاء فى ملابس فاخرة ، وجنودا وبحارة ورعاعا من الأشقياء المجرمين فى أسمال زاهية الألوان . وبينهم عدد من الرهبان الفرنسسكان يحثونهم على التقدم ، وقلة من الدومينيكيين يناشدونهم ضبط النفس)**

الجمهرة : هذا دون چوان . الحاكم . الى الوراء . الى النار بالكلب الهندى . أمسكوه . تنح جانبا يادون چوان . أيها الهرطيق . انه مسحور . لقد رفض هذا الكلب التعميد المسيحى . الى التعذيب .

چوان : **(فى حزم)** سأقتل الرجل الذى يمس هذا الهندى . **(يسير أمامهم جيئة وذهابا وهو على استعداد للطعن بسيفه ناظرا من عين الى عين . متفحصا)** ايها الأوغاد . أين شجاعتكم الآن ؟ أظهروا شجاعتكم اذن . **(ساخرا)** هيا . . من ذا يريد أن يموت ؟

أحد النبلاء : نحن نطالب بالعدالة **(صرخات تأييد من الجمهرة . ويتدافعون مقتربين . چوان يرفع سيفه الى مستوى صدر أقربهم اليه ، فيقفز هذا الى الوراء وهو يطلق**

صرخة رعب، يموج الغوغاء، ويزداد قلقهم وازدحامهم، مترددين ترعبهم عينا چوان)

كويسادا : **(يشق طريقه فجأة الى مقدمة الحجرة ، مشيرا الى نانو فى عنف)** سلمه . أنت مسحور . **(الغوغاء وقد أثيرت من جديد ، تسمع هتافات « الى الحريق ، التعذيب ، الخ ») .**

چوان : كلا . **(صرخات هياج ، وتموج الغوغاء متقدمة ، يرفع چوان سيفه)** سأقتل أول من .... **(يرتدون ثانية ، سوى كويسادا ، يزيحه چوان بيده جانبا فى ازدراء ــ ثم مهددا الآخرين فى عنف)** أتثورون على حاكمكم المدنى ؟ اذن فأنتم خونة لأسبانيا . وأقسم بدم المسيح لأشنقن واحدا على كل شجرة . **(يتراجعون أشبارا فى تلصص وقد انخفضت صرخاتهم لحظة الى مستوى الغمغمة الساخطة « الملك سيعزلك ، اشنقوا الهنود ، اشنقوهم ، اشنقوا نانو » : الخ ...)**

جندى : نحن لانقصد بك شرا يادون چوان. نفذ وعدك لنا. أأمر الاسطول بالابحار **(صرخة تأييد من الجنود والبحارة)**

كويسادا : وسلم هذا الكلب . ستعرف محكمة التفتيش انك تحمى الكفار .

چوان : أنا من جنود أسبانيا ، ولست من جنود محكمة التفتيش. أيها الجنود والبحارة . ان الابقاء على حياة هذا الهندى فى صالح أسبانيا . سيبحر الأسطول غدا ، ونحن فى حاجة الى نانو ليرشدنا فى رحلتنا .

(يرتفع ضجيج الجمهرة الحائرة فى هتافات مختلفة . « الأسطول سيبحر غداً. مرحى ومرحى. انه يهزأ بنا للابقاء على حياته . ان وثنيــا على السفينة لن يجلب الا الشؤم . ماذا يعنى بذلك ؟ أن يرشدنا ؟ كلا ، لعنة الكنيسة» ولكن الغوغاء وقدتحيروا أخذوا يتخبطون ، وچوان يواصل كلامه فى نوع من التنازل كأنه يخاطب أطفالا)

چوان : سكوتا. بما أنكم أغبياء الى هذا الحد فلابد أن أشرح لكم الأمر . ان « نانو » هذا قد ولد فى تلك البلاد .. كاتاى .. هدفنا .. هل تفهمون ؟ ولقد أجلت موعد الابحار ريثما أقوم باستجوابه . نحن فى حاجة الى معلوماته . لابد أن يكون هو مرشدنا . **(وبنظــرة قاسية صوب نانو كأنما ليبلغ تهــديده موضــعه)** واذا لم يف بوعــــده لى ، أســـــلمته لــكم ، عن طيب خاطر ، لمعاقبته .

كويسادا : **(فى عنف)** أنت تقول هذا لتنقذه .

چوان : أيها الجنود والبحارة . اننى أهيب بكم أن تتــدبروا الأمر . هل يستطيع هذا الراهب المجنون أن يقودكم الى الغزو والفتح ؟ عليكم أن تختاروا بينى وبينه . **(الجمهرة كلها تتجه نحــوه ، وقد أخذها الحمــاس والنهم . ويدرك چوان هذه اللحظة النفسية فيلقى بالورقة الرابحة)** ولكن لكى أقنعكم أخيرا . استمعوا الى نانو . تكلم يا نانو . أخبرهم بما أخبرتنى به .. عن المدن الذهبية . تكلم . **(واذ تعــلو صــيحات المتجمعين « فليسقط الكلب . التعذيب . اسمعوا.**

اسمعوا . دعوه يتــكلم . دون چوان يقول دعوه يتكلم . » الخ ... يضــيف هو قائلا للهندى فى همس مخيف) اذا كنت تريد أن ترى وطنك ثانية . .

نانو : **(على نحو آلى ، فى صوت رتيب واضح ، وبوجـه خال من التعبير)** أرض كبيرة . مدن عظيمــة ... جبارة ... ذهب ...

چوان : هل تسمعون ؟ مدن الذهب **(يغمغمون فى اهتياج)**

نانو : هناك ذهب كثير ... البيوت فوقها ذهب .

جندى : شيبانحو . سنكتسح مدنهم .

بحار : الغنائم يا رجال .

چوان : مجد وذهب لكم جميعا . والآن اذهبوا **(هـم الآن مهللون وفرحون . يهتفون « ارفعوا المرساة . هذه كاثاى . أخيرا . اننا مبحــــرون . سلب ونهب . ثراء . ذهب » الخ ... يصرخ چوان بصوت أعلى من ضـــجيجهم)** اذهبوا . تفرقوا . غــدا نبحر . **(يهتف أحدهم « عاش دون چوان » فتتلقفها منه الغوغاء . ويبدأ دون چوان يتراخى تحت ضــغط المجهود الذى بذله ـ بصــوت متعب)** اذهبــوا . اذهبوا ...

الغوغاء : **(يقودهم بحار ينشــدون نوعا من النغم فى كورس هائل ، وهم يرقصون بوحشية وعنف ، ملوحــين بمشاعلهم ، متزاحمين على الخروج ، فى المؤخرة)**

مدن الذهب ،
فى كاثاى البعيدة ،
وملكها ، خان الأكبر ، عجوز هرم ،

وثروته ليس لها مثيل ،
يفوز بها الشجعان ،
الذين يبحرون ،
ذهبه للشجعان الذين يبحرون .

بياتريز : **(اذ يختفى آخر الغوغاء ــ تندفع صاعدة الى چوان فى اعجاب عظيم)** لقد أنقذته . ان ما يقولونه عنك صدق حقا ــ ليون أسد ... اسم على مسمى .

چوان : **(فى مرارة)** أسد . كلا . بل سياسى ماكر . لوكنت حقا كما كنت فى الماضى لما توسلت الى هؤلاء الكلاب ولا ساومتهم .. بل **(يرفع سيفه مهددا ، ثم يترك ذراعه تسقط عاجزة . وينفلت السيف من بين أصابعه ويسقط على الأرض)**

بياتريز : **(تركع بسرعة وتقدم اليه مقبض السيف)** أرد اليك سيفك ليجلب لك الحظ الحسن . والآن يجب أن تجد المدن الذهبية .

چوان : **(يأخذ السيف وفى لهجة تمن وحنين)** لست أحفل الا بشىء واحد يا بياتريز ، مدينة الشباب الذهبية ، وأنت فيها ملكة . **(تتطلع فى وجهه فى ابتسام وقد لفها الغموض ، والستار تنزل)**

ستار

الفصل الثالث

المناظر ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١

المنظر السابع

(بعد أربعة أشهر . جانب من شاطىء فلوريدا . ليلة بهيجة فى ضوء القمر . تمتد الغابة من اليمين فى المقدمة الى اليسار فى المؤخرة أشبه بحائط من الظلام الداكن . وتلتمع الرمال التماعا أبيض شاحبا فى ضوء القمر . ويسمع الصوت الرتيب الذى يحدثه مد الأمواج وجزرها فى هذه الليلة الهادئة الخالية من الريح .

عندما ترفع الستار نتبين هنديا واقفا فى ضوء القمر على حافة ظلال الغابة ، وهو متقدم فى السن ، ولكنه ما يزال مشدود القامة ، محتفظا بسمة المحاربين ، ويبدو من هيئته أنه زعيم . وبدنه ، الذى لا يستره غير جلد غزال حول الوسط ، مصبوغ بالألوان بعناية ، وكذلك وجهه . وفى شعره خصلة من الريش ، ويحمل حول خصره فاسا هندية وسكينا حجرية . يبدو ساكنا لا يتحرك كأنه تمثال ، وقد

اعتمد بيده على قوسه كأنها عصـــا . ولكنه
يمد بصره فى اهتمام وتفحص نحـــو شىء فى
المحيط أمامه . وفى النهاية ، يطلق صوتا يدل
على الدهشة ، ويومىء الى الغابة من خلفــه
بحركة استدعاء ، فيخرج من العتمة الطبيب
الساحر ، وهو رجل عجوز هرم الى درجــة
بالغة ، ضامر متقلص ، يزين جسده برسوم
عديدة ملونة ، وحلى من العظام والأصداف.
يتباحث الاثنـــان معا فى أصـــوات خفيفـــة
وايماءات كثيرة ، ويبدو من الواضح أن هناك
رجلا يسبح نحوهم قادما فى شىء غـــريب فى
عرض البحر . يتسلل هنود آخرون من الغابة،
ويتجمعون فى الظـــلام خلفهما ، ويشـــيرون
ويومئون الى البحر . واذ يصـــدر الرئيس
أمرا ، يرفعون أقواسهم ، ويضعون السهام ،
ويتجمعون فى كمين فى الظلام . يحذو الزعيم
حذوهم، ويقف منتظرا متهيئا لما قد يحدث.
يتقدم نانو على الشـــاطىء قادما من المقدمة فى
اليسار . وتلمع حبات الماء على بدنه العارى.
ويرى الزعيم ، فيقف رافعا يده اليمنى فوق
رأسه . يرسل الزعيم اشارة فيندفع الهنود
الآخرون من الكمين ويحيطون بنانو)

الزعيم : قيدوه .

نانو : **(فى هدوء)** أيكون الأخ عدوا ؟ **(يتنبهون جميعا عند ما يسمعونه يتكلم لغتهم . يمضى نانو فى الحديث)** هذه بلاد آبائى . انا « نانو » أحد أبناء « بووانو » الذى كان زعيما . **(يحملقون فيه جميعا . يشير الزعيم الى الساحر ، فيتقدم ، ويتفحص وجه نانو بامعان)**

الساحر : كلماته صادقة . والا فان روحا شريرة تتقمص بدنه . **(يهز فى وجهه رقية)** هل أنت من بلاد الموتى ؟

نانو : أنا من أرض الأحياء . انهم لم يقيدونى . حسبوا أننى أخاف البحر . أنا قادم لتحذيركم . سبحت فى الزوارق الكبيرة . انها سفن الأسبان الحربية .

الزعيم : **(وقد غمض عليه الأمر)** من هم الأسبان ؟ ان زوارقهم المجنحة تشبه قوارب الآلهة .

نانو : ليس هؤلاء آلهة . انهم بشر ، يموتون اذا جرحوا . وجوههم بيضاء ، ولكنهم أشرار . يرتدون قمصانا لا يمكن للسهام اختراقها . معهم عصى غريبة تبصق نارا وتقتل . شياطينهم تجعلهم أقوياء ، ولكنهم ليسوا محاربين بحق . انهم لصوص ، مغتصبون للنساء .

الزعيم : أليس لهم اله ؟

نانو : **(باحتقار)** الههم شىء من الأرض . هذا **(يلمس حلية ذهبية من حلى الساحر)**

الساحر : **(وقد غمض عليه الأمر)** الذهب ؟ ان الذهب

مقدس عند الشمس . ولكنه لا يمكن أن يكون هو نفسه الها .

نانو : (**فى ازدراء**) انهم لا يرون الا الأشياء وحدها ، لا ما وراء الأشياء من روح . قلوبهم موحلة كبركة خاضت فيها الغزلان . حكماؤهم يتحدثون عن اله جاءهم منذ زمن بعيد فى صورة بشر ، علمهم أن يحتقروا الأشياء ، علمهم أن يبحثوا عن الروح فى الأشياء ، فانتقموا منه وقتلوه . عذبوه وقدموه قربانا لشيطانهم الذهب. عقدوا صليبا من قطعتين كبيرتين من الخشب ، وغرزوا عصيا صغيرة فى يديه وقدميه ، وسمروه ... هكذا (**عندما يمثل لهم ذلك ، تسرى بينهم همهمة ارتياع واستياء**)

الساحر : يعذبون الها ؟ كيف تجاسروا ؟

نانو : شياطينهم كانت تحميهم . والآن يحملون ، أينما ذهبوا ، صورة للاله وهو يموت . يفعلون ذلك لاثارة الخوف . يأمرونك بالخضوع لهم ، بينما ترى أنه حتى الاله نفسه قد عذب هو أيضا ، عندما كافح شرورهم (**فى اعتزاز**) ولكننى رفضت .

الطبيب : (**متشككا**) اذا كنت قد تحديتهم ورفضت الاذعان، فكيف بقيت حيا ؟

نانو : أنا أكثر منهم دهاء . أن لهم زعيما عجوزا عليه لعنة بالجنون . حدثته عن ينبوع الحياة ، وقلت له اننى سأجده له .

الساحر : الآلهة وحدها هى التى يمكنها أن تكشف عنه . لماذا كذبت هذه الكذبة ؟

نانو : (**بوحشية**) الانتقام . لقد وضعت خطة . هل يوجد ينبوع قريب هنا ؟

الزعيم : (**حائرا**) نعم فى الغابة .

نانو : (**فى رضى**) حسن . أصغ الى . هذا الزعيم المجنون أقواهم جميعا . وبدونه يصبحون جميعا جبناء . سأقوده غدا فى الليل الى الينبوع . ويجب أن تظلوا أنتم مختبئين . وسنقتله هناك . هل هذا واضح ؟

الزعيم : نعم .

نانو : سأسبح الآن عائدا . لقد فررت لأنبئكم بخطتى واحذركم . سيخربون أرضكم كما خربوا أرضى . لقد قتلوا زوجاتى وأطفالى . حرقوا المحاربين وعذبوهم وقيدوهم بالسلاسل من أعناقهم . انهم يضربونهم بالسياط ليحرثوا الحقول . لقد كان على رأسهم ذلك الزعيم العجوز . ان فى قلبى نارا ، ولن يهدأ قلبى حتى يموت ذلك الرجل .

الزعيم : لقد بدأت اشعر بحقدك .

نانو : اذن فلا تنس أن تختبىء قرب الينبوع .

الزعيم : لن أنسى .

نانو : هذا حسن (**يستدير ويسير الى البحر ويقفون يراقبونه فى صمت**)

الساحر : (**فى اضطراب ، مفكرا**) الشياطين وحدها تستطيع أن تبنى زوارق كبيرة تطير بأجنحة . أنهم يا أشقائى ، أرواح شريرة . لقد حاربهم نانو وقهروه . هل نستطيع أن نعتمد على خطته .

الزعيم : بماذا تشير علينا ؟

الساحر : لقد سمعت صوت الروح العليا تتحدث فى الليل . فلنحاول أولا استرضاء شياطينهم .

الزعيم : أنا لا أعرف كيف أحارب الشياطين. هذا واجبك. فلنتشـــاور فى الأمر . **(يشير فيختفى أتباعه فى الغابة فى صمت . ويتبعهم هو والطبيب الساحر ، اذ تنزل الستار)**

المنظر الثامن

(نفس المنظر ، ظهر اليوم التالى ، والشمس الملتهبة تسطع بضوئها على الشاطئ . الاعياء والحر اللافح يسبغان جوا ثقيلا ، وتبدوالأرض كأنها قد ماتت وتحنطت فى سائل منصهر لا لون له ، والغابة كأنها حائط أخضر ، ولصوت البحر طابع الارهاق البالغ .

يقام على الشاطئ مذبح مسيحى على عجل : جذعان مستديران يسندان لوحا حجريا . وعلى قمة اللوح وضع وعاء صنع من لحاء الشجر على شكل صحن . جماعة من الهنود يقومون بانجاز الترتيبات النهائية لاقامة هذا الهيكل تحت ارشاد الطبيب الساحر ، دون أن ينقطعوا عن القاء نظرات توقع مرتاعة صوب البحر . الساحر يعقد غصنين معا على هيئة صليب . كل الهنود متزينون بالريش والألوان كما يفعلون فى المناسبات البالغة الأهمية)

الهنود : (**يعملون وعيونهم على البحر ـ خائفين**) الزوارق الصغيرة تغادر الزوارق الكبيرة المجنحة . انهم قادمون . الشمس تلمع على قمصانهم التى لا يمكن أن تخترقها السهام . وعصيهم النارية تتلألأ فى الشمس . وجوههم شاحبة . انهم يراقبوننا .

الساحر : (**منجزا عمله**) احتفظوا بشجاعتكم . (**مناولا الصليب الى اثنين من الهنود**) خذا ... هذه تعويذتهم . أقيماها هناك (**يحفران حفرة فى الرمال أمام المذبح ويقيمان فيها الصليب ، ولكنهم يخطئون فيضعون الصليب مقلوبا . الساحر يغمغم راضيا**) سيظنون أننا نعبد نفس الشيطان . سيتركوننا فى سلام .

الهندى : (**عيناه على البحر**) الزورق الأخير انفصل عن السفن الكبيرة (**يطلق صرخة رعب يرددها الآخرون**) ياى . نار ودخان . (**ينحنون فى خوف . وتدوى فوق مياه البحر طلقة تحية من المدفع . ينكمشون جميعا فى رعب وقد أحنوا رءوسهم**)

الهندى : (**فى رعب**) الرعد يحارب فى صفهم .

هندى آخر : انهم آلهة بيض .

الساحر : (**وقد خاف هو نفسه ولكنه يجمع شمل أتباعه فى قسوة**) ان لكم قلوب الجبناء . هيا ، بسرعة . أين الذهب ؟ (**يأتى اليه هندى بآنية مصنوعة من الطين المجفف . يفرغها فى الوعاء الموضوع على قمة المذبح . الآنية مليئة بالسبائك الذهبية من مختلف**

الأحجام فتصبح كومة وهاجة فى ضوء الشمس)

الهنود : انهم قادمون ! انهم قادمون !

الساحر : تظاهروا بعبادة شيطانهم الذهبى ، ولكن صلوا لأمنا المظمة ، الشمس . انها تستطيع أن تقهر كل الشياطين . صلوا لها . **(يبدأ هندى فى القرع قرعا منغوما على طبلة صغيرة ، ويرفع الرجل صوته المرتعش مع الأنغام الأولى . فيشترك الآخرون معه على الفور كأنهم منومون)** أمنا العظيمة ، الجبارة ، حاكمة الأرض ، صانعة الأيام ، اسمحى لانشادنا أن يصعد اليك ، وأن يدخل قلبك أيتها الجبارة ، اسمعينا ولا تخفى عنا وجهك فى السحب ، وباركينا عند الفجر ، وفى نهايةالنهار. **(يقفون فى دائرة ويرقصون حول المذبح وعيونهم مرفوعة الى السماء . يخفى انشادهم أصوات نزول الأسبانيين الى البر . ثم يظهر الأسبانيون من اليسار ، فى المقدمة . يدخل چوان أولا . وجهه قاس مربد ، وعيناه ثابتتان فى محجريهما . وفى صحبته لويز ، وتتبعهما فصيلة من الجنود يحرسون نانو مقيدا بالسلاسل . ثم يأتى أربعة من الرهبان الفرنسيسكان يقودهم كويسادا مسلحا بسيف ومسدس فوق المسح الذى يرتديه . والآخرون يحملون صلبانا . ويتبع هؤلاء جماعة من النبلاء فى ثياب فاخرة ، ثم صفوف من الجنود . ويحملق الجميع فى هذه الطقوس الهندية باحتقار وازدراء)**

چوان : (عصـبيا) دعهم يكفوا عن ضجيجهم الملعـون يا لويز . دع نانو يتحدث اليهم .

لويز : (**متقدما نحو الهنود ـ فى صـوت مرتفع ولـكن ودود ، رافعا يده اليمنى**) سـلاما ايها الاخوة .

(يتوقف الهنود متحجرين يحملقون فى رعب الى الرجال البيض . الساحر يرفع يده اليمنى ويتقدم خطوة نحو لويز . يلمح كويسادا الصليب فيزمجر متعجبا ، ثم يتقدم ليتأكد مما رأى ، وعندما يرى أنه مقلوب حقا . يربد وجهه بالحنق الشديد)

كويسادا : صليب مقلوب : صلاة شيطانية (**يخرج مسدسه**) الكلب الكافر . (**يطلق الرصاص فيسقط الساحر . الهنود الذين تراجعوا فى رعب نحو الغابة منذ أول حركة من كويسادا ، يولون الأدبار فزعين**)

لويز : (**فى هلع**) كف يا كويسـادا . (**كويسـادا ينزع الصليب ، واذ يقوم بتثبيته فى وضعه الطبيعى ، ينزع الهندى سكينه بآخر ما بقى له من قوة قبل الموت ، ويتحامل ناهضـا على قدميـه ، ويطعن كويسادا فى ظهره ، ويسقط الاثنان معا ، ويموت الهندى ، بينما كويسادا تصيبه رعدة ثم يسكن . يطلق الأسبانيون صرخة حنق . ويندفعون الى الأمام صوب الغابة كأنما ليطاردوا الهنود ، ولكن چوان يصرخ فيهم آمرا**)

چوان : قفوا أيها الأغبياء . (**يقفون فى تعقل واستياء معا . يسـتدير چوان الى لويز الذى ركع الى جـوار كويسادا**) هل مات ؟

لويز : نعم . (**يرسم على نفسه علامة الصليب**) فلترقد روحه فى سلام (**ويردد الجميع قوله وهم يرسمون علامة الصليب**)

چوان : العين بالعين والسن بالسن (**ساخرا**) وهى الآن عينه هو وسنه هو . (**مرتعدا**) خذوه بعيدا . هذا تعميد دموى لكانائ (**مستديرا الى نانو ، اذ يحمل الجنود الجثتين جانبا**) اهذه هى البلاد يا نانو ؟

نانو : (**وعيناه تنقدان كراهية**) نعم .

چوان : لقد قلت انها أرض العجائب ، أرض الأزهار ، ولكننى لا أرى أزهارا .

نانو : (**فى لهجة خبيثة**) فى الغابة . تنمو الأزهار الى جوار الينبوع ..

چوان : (**فى عنف ــ وهو ينظر حوله متوجسا**) أسكت .

احد النبلاء : (**من الجماعة التى تدور فى المكان نافدة الصبر**) يا صاحب السعادة ، ان أعلام قسطلة وأراجون تنتظر اوامرك .

چوان : (**يقوم بحركة تدل على الاضطراب ، كأنما يزيح عن ذهنه نسيجا عنكبوتيا**) نعم .. نعم .. لابد أن اعلن الامتلاك .. هاتوا الأعلام . (**يركع على ركبة واحدة ، ويفعل الجميع مثله**) باسم السيد المسيح ، وباسم صاحب الجلالة الجالس على عرش قسطلة وأراجون ، اضم الآن الى ممتلكاته هذه البلاد وكل نواحيها . واسميها فلوريدا . (**ينحنى ويقبل الرمال . تثبت سوارى الأعلام فى الرمال ، وتتدلى**

الأعلام فوقهـا دون حركة . وعندما يقوم چوان بهذا المجهود يبدو كأنه تبلد)

أحد النبلاء : **(فى همس ساخر)** اسم جميل .

نبيل آخر : لقد اصبح غبيا . أتراه سيذهب باحثا عن ينبوعه هنا أيضا ؟ لابد أنه سيموت غرقا من كثرة ما شرب من ماء طيلة الشهور الأربعة الماضية . **(يتغـامز الجميع على هذا)**

نبيل آخر : **(نافد الصـبر)** ألن ينهض من على ركبتيه أبدا فيتركنا ننهض ؟

لويز : **(وقد احس بما يدور خلفهما ـ يلتفت الى چوان الذى يبدو انه يصلى وقد أحنى رأسه ـ يشده من كمه)** چوان . هيا .

چوان : **(فى شرود)** كنت أصلى .. ولكن لأى اله ؟ لست أدرى **(ينهض فى ضعف ، وعنـد ذلك ينهضون جميعا)**

أحد النبلاء : **(مشيرا فى انفعال)** أنظر . هناك فى تلك الآنية فوق الأحجار . اليس ذلك ذهبا ؟ **(يندفعون جميعا الى المذبح . يمسك النبيل بقطعة منها ويتحشرج صوته بما فيه من جشع وظفر)** ذهب . **(يمدون جميعـا أيديهم الى الآنية يمسـكون بها ، فتنقلب محتوياتها على الرمال، فيسقطون وراءها يمسكون بها صارخين)** ذهب ! لابد أن هذه البلاد غنية . لابد أن يكون فيها مزيد من الذهب . المدن الذهبية قريبة . كاثاى . اخيرا . **(ينسى الجنـود النظـام ، ويخرجـون من الصفوف ، ويتحـولون الى جمهرة متدفقـة حول**

القائد ، دون نظام . وحتى الرهبان أنفسهم يبرزون الى الأمام مستطلعين)

لويز : **(فى حمية)** چوان . أنظر . هذا مشين .

چوان : **(يرتد الى نفسه فجأة ــ آمرا فى لهجــة عنيفــة)** عودوا الى الصفوف . انكم تضربون مثلا رائعا يا نبلاء أسبانيا . **(تطغى قوة شخصيته ، فيتسللون جميعا عائدين الى النظام وهم يغمغمون فى تمرد . ويبــدو چوان وقد تملكه فجــأة فرح وحشى)** كاثاى . لقد عثرنا على كاثاى . هذه هى البلاد .. البلاد المزهرة . ان أحلامنا تكمن هنا . فلنرتل جميعا صلاة الشكر للرب ... هيا .

(يطبق الصمت الثقيل لحظة تبــدو فيها الحرارة ، والشمس المتوهجة على الشاطىء ، وخضرة الغابة ، بل الطبيعة كلها ، كأنها تسلط على هؤلاء الرجال أثرا سحريا غامضا ، أعترافا متهالكا مفاجئا بهزيمتهم . ثم يرفع الرهبان الفرنسيسكان أصواتهم بصــلاة الشكر على نحو آلى لا روح فيه . وبالتدريج تنضم اليهم أصــوات أخرى لا حياة فيهــا ، بينما تنزل الستار ..)

ســــتار

المنظر التاسع

(حوالى منتصف الليل فى الغابة . فى المقدمة جذوع أشجار تلتف حـولها كروم مزهرة . طحالب أسبانية متسلقة متدلية الى الأرض من الأغصان . من خلال هذا التشابك ، ساحة دائرية نبتت فيها الحشائش وأغرقها ضــوء القمر . يسمع همس خرير هادىء فى ينبوع منبثق بفقاقيعه من الأرض . وسط هــذه الساحة هنود راقدون فى كمين بين الأشجار، دون حركة ، وقد ثبتوا أنظارهم على الساحة.

ويقطع السكون نداء طير فينتبه الهنود فى يقظة . يصفر أحدهم مجيبا ، فيزحف هندى، من اليسار ، مسرعا . ويأتى الزعيم من مكانه فى الكمين ليقابله)

الزعيم : أهو آت ؟

الهندى : دخل الغابة .

الزعيم : سـأعطى نانو الاشـارة حينما نستعد . اذهب . اختبىء (يأخذ الهندى مكانا بين الآخرين . يضع

الزعيم سهما فى قوسه ، ويقعى فى الظلام . فترة صمت . ثم صوت شخص يشق طريقه فى الغـابة عند المؤخرة . يظهر نانو هناك يتبعه چوان)

چوان : لماذا توقفت ؟

نانو : هذا هو المكان .

چوان : (**ناظرا حوله فى خيبة أمل**) هذا ؟

نانو : هذا هو الينبوع .

چوان : (**يخطو الى الأمام لينظر اليه ــ ثم فى غضب متزايد**) انه يبدو ينبوعا عاديا كأى ينبوع آخر . حذار أيها الكلب ! لقد اريتنى فى هذه الشهور الماضية ينـابيع عـدة .

نانو : (**بسرعة**) كانت الرحلة طويلة . وكانت هناك جزر كثيرة . واجبرتنى أنت أن أقودك الى ينبوع فى كل منها . ولقد أخبرتك أن ينبوع الحياة هنا .

چوان : كنت اخشى أن تقودك رغبتك فى الانتقام الى الكذب . (**ويروح فى شرود حزين ــ بمرارة**) لقد شربت من كل ينبوع . وكنت اغمض عينى ، وأشعر بالحيـاة تولد من جديد . يالى من أحمق ! لقد كانت مرآة الينبوع تطلع على فى كل مرة بنفس الوجـه العطن الكريه . (**يئن مزمجرا ــ ثم بضحكة خشنة**) روضة مقدسة ، هكذا تقول الأسطورة . كانت بعض هذه الينابيع تنبثق من مياه رملية . والعذارى الحسان ؟ لم يكن لهن وجود . بل وجدت قرب واحدة منها عجوزا شمطاء تملأ وعاءها ، وشربت وتجشـأت فى وجهى (**بلهجـة آمرة جافة**) نانو . آمرك أن تقول

لى ان كنت كذبت على . **(فى شرود)** لابد أن أصل الى اليقين ، ايمانا كان أم يأسا .

نانو : هذا هو الينبوع .

چوان : **(ناظرا حوله)** ولكن أين الأشجار بثمارها الذهبية، والعذارى ، والنافورة ؟ **(يحملق حائرا ــ متمسكا بالأمل)** ومع ذلك فان لهذه البقعة جمالا فريدا . أنا أحس بسحر المكان . ولكن لماذا أرتعد ؟ **(اشارة بالصفير الخفيض تأتى منالزعيم المختبىء فى طرف الساحة . يهب چوان)** ششش . ما هذا ؟

نانو : طائر . **(باصرار)** انه ينبوع سحرى . اشرب .

چوان : **(منحنيا على الينبوع)** مرآة من ضوء القمر . عينا جثة ميتة تحملق فى عينى ... **(يركع الى جوار الينبوع كأنما أصابه سحره)** لا أجرؤ على الشرب . لمن أستطيع أن أصلى ؟ بياتريز ! آه بياتريز ! لو سمعت صوتك مرة أخرى ! لو رأيت وجهك ! ومع ذلك فاننى أراك فى كل مكان . روحك تلهم كل الأشياء أينما يكن الجمال . انا أسمع نداءك فى أغنية الموج ، الريح أنفاسك ، وبذراعيك تمتد الأغصان ، والفجر والغروب يمنيان النفس بشفتيك . أنت فى كل مكان ولست فى أى مكان ، أنت جزء من الحياة كلها ، الا حياتى . **(يتوقف ويلتفت فى تشكك وينظر بسرعة الى نانو القلق ــ فى مرارة)** منظرى جدير بالضحك والسخرية ... هه ؟ عجوز قبيح أحمق .

نانو : **(فى لهجة آمرة عنيفة)** اشرب .

چوان : (فى ارتباك وعجلة ـ دافعا نفسه الى الحركة) الامتحان ! يا روح الشباب الأبدى ، أصلى لك . بياتريز ! (ينحنى ويشرب . واذ يفعل ذلك ينفلت عنه نانو بسرعة الى الغابة ، فى المقدمة) .

نانو : (فى عجلة) اقتلوه عندما يقف . (يمكن رؤيةالهنود يرفعون أقواسهم ويسددون) .

چوان : (وقد شرب ، يظل راكعا عند الينبوع ـ ويرتعد صوته فىفرح متردد) الحياةالجديدة تنبض فى. أهو الشباب ؟ هل أنا فىحلم ؟ اذن فلأبق فيه لأستيقظ منه حتى آخر الزمن . (فى صوت أجش) جبان ! كم من مرة وقفت تواجه الموت . هل أنت الآنخائف من الحياة ؟ افتح عينيك ، افتحهما وانظر (يفتح عينيه ويحملق فى الينبوع . فتشق صدره زجرة هائلة) رباه ! (ويتحول حزنه على الفور الى غضب جنونى) أيها الكلب الخائن ، لقد خدعتنى . (ويقفز ناهضا على قدميه مستلا سيفه ، وتسمع أصوات شد أقواس كثيرة ، وأزيز وابل منالسهام . يسقط چوان متشبثا بالحشائش ، وتخمد أنفاسه . يتدفق الهنود خارجين من الساحة ، ولكنهم يبقون على مبعدة من چوان فى حذر)

نانو : (وهو أشجع منهم ، ينحنى على الجثة) لم يكن يرتدى قميصا لامعا . انه ميت (يرقص رقصة عنيفة من رقصات الانتصار بين الهنود ، الى

جانب الجثة ـ وكما بدأها فجأة يتوقف فجأة)

هيا بسرعة ، الى معسكرهم . لقد جعلهم الروح الأعظم بلا حول ولا قوة . كونوا شجعان واقتلوا .

(يجرى بسرعة داخل الغابة ، تتبعه الجماعة كلها شاهرين اسلحتهم . فترة ، ثم صرخات الهنود الوحشية وهم يهجمون على المعسكر النائم ، وصرخات الرعب من الأسبانيين ، وأنات المحتضرين، وبضع طلقات فاشلة)

ستار

المنظر العاشر

(نفس الساحة فى الغابة بعد بضع ساعات .
لا تظهر الآن الأشجار ، بل تبدو الساحة
وحدها تشغل المنظر كله . الينبوع فى الوسط .
الجدار المكون من أشجار الغابة يؤلف مؤخرة
شبه دائرية تقريبا . ويرتفع الستار عن ظلام
حالك وسكون لا يشوبه الا خرير الينبوع .
ثم يسمع صوت شخص يناضل لينهض من
الأرض ثم يسقط وهو يزوم متألما . يأتى
صوت چوان من الظلام)

چوان : (كأنما قد استعاد وعيه — فى زمجرة غضب وألم اذ يسترجع ذاكرته) يا لى من أحمق ! لماذا فتحت عينى ونظرت ؟ ياليتنى كنت مت فى حلمى ! (فترة — فى ضعف) كأن النوم يطن فى اذنى . أم هو الموت ؟ الموت الرحيم . (يتململ ويصبح صوته فجأة ثاقبا) كلا . كلا . لماذا عشت ؟ لكى أموت وحيداً كوحش فى البرية ؟ (بيأس مرير ساخر) يسوع ... أهذه

عدالتك ؟ ألا يعرف التسامح تخلّص البشر ؟ نعم ، لقد صليت من أجل معجزة ليست من معجزاتك ، فلأكن ملعونا اذن . ولكن (**بعاطفة متاججة**) اجعلنى أومن بملكتك . أرضى بمعجزتك .. اشارة .. كلمة .. لمحة أرى فيها ما أنا ، حتى أكون قد عشت ومت . تجربة .

(**يضحك فى حركة تجاسر ساخرة**) لا شىء . (**لكن، حتى وهو يتكلم ، يبدأ خيط من الضوء الغريب يتدفق على نقطة من طرف الساحة فى اليمين ، فتأخذه الدهشة رغما عنه**) هذا الضوء ؟ ان القمر محتجب . (**ومن خلال الضوء المتزايد تتضح معالم جسم ، جسم امرأة طويلة ، كقطعة من تمثال تاريخى متدثر فى غلالات طويلة فى لون أزرق كأنه أسود تقريبا ، والوجه قناع شاحب لاتبين من ملامحه الا العينان اللتان تحملقان الى الأمام فى نفاذ حجرى ثابت يخترق الأشياء فيراها وما وراءها . ذراعاها جامدتان الى جانبيها ، وكفاها مبسوطتان الى الخارج . يحملق چوان فيها ، يصطرع فى نفسه التحدى مع الروع**) ماذا أنت ؟ (**يغتصب ابتسامة سخرية**) ملاك ! استجابة لصلاتى ! (**لا يستطيع أن يتمالك رجفة تصيبه ـ يحاول أن يهدىء نفسه . يحملق فى الجسم ـ بعد فترة ـ بجسارة**) أم أنت الموت ؟ لماذا اذن كنت أضحك كثيرا وأنا أمامك وجها لوجه ؟ (**مستثيرا**) ارفع قناعك أيها الجبان . (**ساخرا دون اطمئنان**) أيتها السيدة الحسناء ،

أنت غامضة . ينبغى على المرء أن يطوقك بذراعين جريئتين ، وأن يرفع عنك تنكرك . كانت هـذه تسليتى القديمة ، أن ألهو بالغرام كما لو كان مباراة فى الصيد والقنص . لو كنت ما أزال ذلك الدون چوان ! ! ولكننى كما ترين الآن عجوز ، وجريح . **(يتريث . الجسم يتجمد . چوان يسأل فى شىء من التلعثم)** هل أنت ... الموت ؟ اذن انتظر . **(فى ابتهال عميق)** بياتريز . دعينى أسمع صوتك مرة أخرى رحمـة بى فى موقف الوداع . **(يأتى صوت بياتريز يغنى من الظلام كما لو كان استجابة لابتهال چوان)**

الصوت : الحب زهرة ،
دائما مزدهرة .
الحيـاة ينبوع ،
دائما يتدفق ،
الى العلا ، ليمسك بضوء الشمس الذهبى .
ويبلغ السماء اللازوردية .
يهوى ويسقط ،
ودائما يعود ؛
ليقبل الأرض كى يزدهر الزهور .

چوان : **(فى جذل)** الشـباب ! **(وفى أثنـاء الغناء يتدفق الضوء الغريب ببطء حول الينبوع الذى يتحول الى نافورة هائلة ، تبدو مياهها التى يطوقها قوس قزح وكأنهـا تضم السماء والأرض ، فى غلالة من**

النور المتألق تحجب الغابة فى المؤخرة . ويصبح جوان والجسم على حافة هذا المنظر فى الخارج . يبدو جسم بياتريز فى الداخل كأنه صاعد من الينبوع . وترقص بياتريز فى نشوة ـ تمثيلا لروح الينبوع . يهتف جوان بصوت يختلج سعادة وفرحا) الينبوع ! فلأشرب . (يحاول أن يجر نفسه اليه ولكنه لا يستطيع ـ فى قلق) الابد أن أموت ..؟ (يشير اشارة تحد غاضبة الى الجسم وهو يناضل للنهوض) لا . أنا أتحداك . (يشعر بالارهاق فيهوى ثانية وهويبكى متضرعا) بياتريز ! (يبدو أنها لا تراه ولا تسمعه . جوان فى يأسه يكاد ينتحب) هى لن ترى. ولن تسمع. أيها الينبوع ، أنت قاس كقلب الشباب ، ماذا لديك من رحمة للعجوز وللجريح ؟ (يتهاوى وقد غلبه الضعف . تتلاشى بياتريز من الينبوع . ويظهر مكانها شبح يمثل شاعرا صينيا ، وهو رجل عجوز مقدس له سماحة وجه الحالم والعالم ، يحمل لوحة يكتب عليها بفرشاة غارقا فى التأمل . جوان يرفع بصره فيراه وينتبه فى دهشة) من أنت ؟ ما شأنك ؟ (متلمسا أثرا يعينه فى الذاكرة) آه أنا أعرف ... تلك الليلة فى غرناطة ... حكاية العربى (فى اهتياج) عن ذلك الشاعر فى الشرق ، الذى أخبر والده بأكذوبة الينبوع . ألست أنت ذلك الذى يسمم الحياة ؟ (يرفع الشاعر يده كأنه يستدعى شخصا . ويظهر الى جانبه شبح المنشد العربى

الذى رأيناه فى المنظر الأول .) العربى ! **(هائجا)**
أيها الـكلب الـكافر . كذبتك كانت لعنة عليك .
(يظهر شبح نانو الى جانب الشاعر الصينى من الناحية الأخرى . يناضل چوان فى غضب ليبلغ سـيفه) القاتل ! **(ثم تقع عيناه على جسم رابع يتجسد الى جانب العـربى ، هو لويز كما كان فى المنظر الأول . يقـول چوان بصرخة فرح)** لويز
أيها الصديق القـديم . **(اذ يبدو أن لويز لا يراه ولا يسمعه ، ينهاوى چوان فى غير حول ولا قوة)**
لا ، هذا شـبح هازىء آخر . **(يراقب الشـاعر الصينى الذى يبدو كأنه يقرأ على الجميع ما كتب)**
انظر . ان الموتى يكذبون على الأحيـاء . وهكذا تسير الأمور .. من الشرق الى الغرب .. حول العالم المسـتدير .. من العوالم القـديمة الى الجديدة .
ها ها ها . **(يضحك بصـوت وحشى أجش . الشاعر الصينى يأخذ الهندى بيد ، والعربى باليد الأخرى ، ويمد هذان أيديهمـا الى لويز ، فينضم اليهمـا ، وتتم بهم هكذا دائرة كاملة ، ويسـمع صوت بياتريز تغنى)**

الصوت : الحياة حقل ،
متزايد أبدا .
الجمال ينبوع ،
متدفق أبدا .
متساميا الى ما وراء مصدر الشمس ،
متساميا الى ما وراء السماء اللازوردية .

انه من الله ،
ولكنه يعود أبدا ،
ليمتزج بالأرض لكى تثمر الحقول .

(وبينما تغنى بياتريز تتلاشى الأشباح الأربعة كأنما ذابت فى الينبوع)

چوان : **(غارقا فى نشوة الأغنية)** غن ، غن ، أيها الشباب . **(يهم فزعا عندما تتوقف الأغنية ، ثم يقول فى غباء)** ذهبت الأشباح . ما هو حل هذا اللغز ؟ لست شاعرا . كنت أناضل فى سبيل ما يمكن لليد أن تبلغه . فماذا يبقى عندما يجعل الموت اليدين عاجزتين ؟ **(مخاطبا الشبح فى رثاء ، محاولا أن يتهكم)** أيها الجبار ، يا من تفك قبضة الأيادى ، أما لديك من رؤيا للمتشبثين بالأرض ؟ **(يرفع الشبح يده فى حركة استدعاء ، فتبدأ الأشباح فى الظهور ، واحدا بعد الآخر . يظهر أولا الشاعر الصينى مرتديا الآن زى كاهن بوذى ، ثم المنشد العربى فى زى شيخ مسلم ، ثم الطبيب الساحر كما كان فى المنظر الثامن وقد تزين بكل أصباغه وحليه الرسمية ، وأخيرا لويز كما هو الآن راهب دومينيكى . ويحمل كل منهم شعار دينه أمامه ، ويبدون جميعا فى وضوح ، لحظة ، ثم يتلاشون كأنما ذابوا فى الينبوع . وكان چوان يحملق فيهم بعين متفحصة ــ ثم يقول فى صوت حائر)** العقائد كلها ... تتلاشى . كلها واحدة ومتساوية ... فى داخلها . **(الرهبة والتوقير يتسللان الآن الى**

صـوته) ماذا أنت أيها الينبوع ؟ ذلك الذى تنبع منه كل الحياة ، واليه ينبغى أن تعود ، الله ! أتكون منـك كل الأحلام الا ذلك الحلم الواحد . **(يحنى رأسه فى بؤس)** لست أدرى . عد أيها الشـباب . اكشف لى هذا السر . **(وتمر لحظة يسمع فيهـا صوت بياتريز قادما من الظلام)**

الموت شباب ؛

يحجب شروق الشمس .

(يبدو أن چوان قد وقع فى سـنة من النشوة . شبح امرأة هندية عجوز يظهر من اليسار . تتقدم الى الأمام متعثرة الخطى ، تحمل تحت ذراعها آنية خشبية كأنما هى ذاهبة تملأها من الينبوع)

چوان : **(يتذكرها فيقول فى استبشاع)** أيتهـا الشمطاء الملعونة ، أنا أتذكرك وقد وقفت الى جوار أحـد الينابيع لتسخرى منى . أغربى عنى . **(ولـكن المرأة العجوز تمد يديهـا نحوه فى تضرع غامض . چوان يرتعش ، وبعد نضال مع نفسه ينهض على قدميه فى ألم شديد)** فليكن ما تشائين . اجلسى الى جانبى . أنا ، أيضا ، عجوز . وأنت ، أيتهـا المرأة البائسة لا تقوين على ملء وعائك . تعالى . **(يأخذ بيديهـا . وفى لمح البصر يختفى من على وجهها قناع الشيخوخة . انها بياتريز . چوان يحملق فيها منتشيا . وفى تلعثم ، اذ يسعى ذهنه الى تلمس الأمور ، يقول)** بياتريز ، العمر ، الشباب انهما نغم الحياة الأبدية . **(ودون أن يلحظهو . تنفلت**

منه بياتريز وتتلاشى فى الينبوع . يرفع وجهه الى السماء فى فرح شديد) أتى الضوء. الضوء يتسلل الى روحى . (ثم يرى الشبح يسير ببطء ليتلاشى فى الينبوع) لم يعد هناك موت . (يظهر الشبح ثانية داخل الينبوع ، ولكن دون قناع هذه المرة ، والوجه وجه بياتريز ، وقد أصبحت طويلة جليلة تموج بالقوة ، وذراعاها مرفوعتان فوق رأسها ، وبدنها كله مشرئب الى الأعلا ، ومن مصدر الينبوع تنبعث نار شفافة راقصة تطفى عليها وتلفها حتى يصبح شبحها كأنه قلب اللهب . يحملق چوان فى هذا المنظر لحظة ، ثم يسقط على ركبتيه فى سعادة وانتشاء) فهمت . ينبوع خالد ، زمن لا نهاية له . لهيب الروح يحول الموت ويغيره . كل شيء فى السريرة . كل الأشياء تذوب وتتدفق الى الأبد . يانار الحياة الطامحة ، اكتسحى روح البشر المظلمة ، ولنحترق جميعا فى وحدتك (يعلو صوت بياتريز بالغناء مزهوا بالنصر)

الصوت : الله زهرة ،
مونعة أبدا .
الله ينبوع ،
متدفق أبدا .

(تتوقف الأغنية . ويخبو الضوء . ثم يسود الظلام . ويسمع صوت چوان يتهدج بالسعادة)

چوان : يا الهى ، يا ينبوع الخلود ، أنت الكل فى واحد ، الواحد فى الكل ، الصيرورة الخالدة التى هى

الجمال (**يغيب عن الوعى . صمت . ثم يغمر ساحة الغابة ضوء الفجر الباهت . ويرى چوان راقدا حيث سقط . يسمع صوت شخص قادم من الغابة فى المؤخرة ، ويدخل لويز وراهب دومينيكى خارجين من الغابة**)

لويز : (**يرى چوان**) شكرا لله (**يندفع الى الأمام ، ويركع الى جانب چوان . يتقلب چوان قليلا وهو يتأوه**) انه يتحرك . چوان . أنا لويز . لقد قتل أصدقاؤنا . وهناك قارب من الأسطول ينتظر .

چوان : (**فى نشوة حالمة**) يا الهى ، أنت الكل . . . .

الراهب : انه يصلى .

لويز : انه فى غيبوبة . فلنحمله . سنبحر الى أقرب مركز من مراكزنا .

چوان : (**وهم يحملونه**) الضوء . اننى أرى ، وأعلم .

لويز : انه الفجر يا چوان .

چوان : (**فى رضى ونشوة**) الفجر ! (**يحملونه ويخرجون بينما تنزل الستار**)

ستار

المنظر الحادى عشر

(بعد بضعة أشهر. فناء الدير الدومينيكى فى كوبا. فى الوسط نافورة صغيرة بسيطة، هى الزينــة الوحيدة فى هذه الرقعة المربعة العارية، تحت أشعة الشمس المحرقة، وقد أحاط بها، فى اليسار والمؤخرة جدار أبيض مرتفع، وفى اليمين بنــاء الدير نفســه. والمدخل عبارة عن منفذ مقوس عليه صليب من الخشب المحفور. وعلى جانبى البــاب كوتان فيهما تماثيل بدائية من الخشب للعائلة المقدسة وللقديس دومينيك. وفى الحائط، فى الوسط، باب مقوس آخر فوقه صليب. ويمكن أن نتبين الطبيعة، ونحس بها، فيما وراء الجدار، حيــة عامرة بالألوان، تموج بالحياة الاستوائية الفياضة المتعددة الألوان. وأشجار النخيل منحنية على الجدار، تلقى ظلالها المائسة فى الداخل. والكروم المزهرة قد تسلقت الى القمة وبدأت تزحف هابطة الى الداخل.

السماء فى ساعة الغروب تموج فى عمقها بروعة باهرة .

عندما ترتفع الستار نتبين چوان وكبير الرهبان . چوان نائم متمددا على مقعد من مقاعد المرضى العاجزين ، صنع بطريقة ارتجالية ، وقد تدثر بعباءته ، وجلس فى مواجهة النافورة ، وهو شاحب متغير ، ولكن ملامحه المتعبة قد اكتسبت الآن طابعا جديدا تماما . هدوء الصفاء الروحى العميق . كبير الرهبان رجل ممتلىء الجسم ، له وجه بسيط مستدير ، أشيب الرأس واللحية . عيناه الواسعتان هادئتان كأعين البقر . يفتح باب المؤخرة ويدخل لويز . يغلق الباب خلفه فى حرص ، ويتقدم على أطراف أصابعه)

لويز : **(هامسا)** أهو نائم ؟

كبيرالرهبان: كما ترى أيها الأب .

لويز : **(ناظرا الى چوان)** ما أهدأ وجهه ! كأنما رأى رؤيا تملأ القلب سلاما .

كبيرالرهبان: انها لمعجزة مباركة أن عاش حتى الآن .

لويز : كان ينتظر . **(فى حزن)** والآن . أخشى أن تكون رغبته قد تحققت ، ولكن ليس كما كان يحلم .. وانما هى كأس المر والحنظل .

كبيرالرهبان: **(وقد غمض عليه الأمر)** هل تعنى أن السـفينة تحمل له أنباء سيئة ؟

لويز : نعم . ولابد أن أوقظه لأهيىء ذهنه .

كبيرالرهبان: سأتركه لك . لقد حانت صلاة المساء . **(يستدير ويمضى داخلا الدير)**

لويز : **(يلمس ذراع چوان ــ برقة)** چوان ، استيقظ . **(يفتح چوان عينيه)** لقد رست السفينة .

چوان : من بورتوريكو ؟

لويز : نعم .

چوان : **(وعليـه ملامح الثقـة ــ فى فـرح عظيم)** اذن فبياتريز هنا .

لويز : **(مرتبكا ــ متهربا)** لقد قام الهنود بفتنة فظيعة . وقتل دييجو . **(بسرعة)** ولكن لن أزعجك بهذا . **(ثم ببطء)** بيـاتريز آتية لتمريضك . **(مؤكدا تحذيره)** أنت أبوها الثانى ، هكذا قالت .

چوان : **(مبتسما)** لا حاجة بك الى التأكيد . أعرف قلبها . **(ثم فى اهتمام)** ولكن لابد أن أطلعها على الحقيقة . **(ثم على نحو من التضرع مطالبا بالضمان)** لهذا كان انتظارى . لكى أحدثها عن الحب الذى شعرت به نحوها .. الآن .. مودعا .. فلن تستطيع أن تسىء فهمى . **(فى كبرياء)** لم يكن حبى شـيئا عاديا . كانت هـذه أول مرة يمس فيها الجمـال حيـاتى . أريد أن أعيش فى ذاكرتهـا على نحو ما كانت هى بالنسبة الى **(متهاويا ــ وعلى وجهه شبح ابتسـامة ، وبصوت ضـعيف)** هيا أيهـا

الصـــديق القديم ، أبلغ بك النسك والتقشف أن تنكر على حقى فى أن أضع هذه المدينة الذهبية ــ المدينة الوحيدة التى فتحتها ــ عند أقدام الجمال ؟

لويز : **(محاولا اقناعه فى عطف ورقة)** الصمت أفضـــل يا چوان . ينبغى أن تتخلى عن . . .

چوان : لقد تخليت عن كل شىء . ولــكن هل تضن على راحل أن يســـتجدى من الأرض زهرة يحملهـــا تذكارا أخيرا لجمال الدنيا ، حتى يكون فى الوداع عزاء عن الأسى ؟

لويز : **(يزداد ارتباكا)** چوان ، أنا . . أنا أتكلم لأنك . . تعـــذبت . والآن ، لا أريد أن تزداد عذابا أيهـــا الصديق العزيز . **(ينطلق بما عنـــده فجأة)** هذه الســـفينة تحمل اليك مفاجأة . أن ابن أخيك ، چوان ، قد وصل من أســـبانيا . وهو قادم من پورتوريكو لتحيتك .

چوان : **(فى ابهام)** ابن أخى ؟ **(تسمع أصوات من داخل الدير)** بياتريز ! **(يظهر كبير الرهبان عند المدخل يعلن قدوم بياتريز وابن أخ چوان ، تتبعهما وصيفة بياتريز وخادم ابن الأخ ، حاملا عباءة سيده وعوده . يظل هذان ، أثناء المنظر القادم ، واقفين بالباب فى احترام بعض الوقت ، ثم يدخلان الدير ، بعد أن يترك الخادم العبـــاءة والعود على الأرض بجـــانب المدخل . ينسحب كبير الرهبـــان على الفـــور ، وينسحب لويز أيضا بعد أن يشد على يد چوان متبادلا التحيـــة مع الزائرين عند مروره بهما .**

بيــاتريز تموج بالرضى ، ومن الواضح جدا أنها فى حالة غرام عميق . أما هو ففارس شـــاب رشيق نحيل ، يرتدى ثيابا فاخرة)

بياتريز : **(تتوقف لحظة وعليها ملامح التعجب حينما ترى وجه چوان الذابل ، ثم تندفع وتلقى بنفسها راكعة على ركبتيها الى جوار المقعد . تقــول فى عجلة)** دون چوان . أوه يا للسعادة ، أن أجدك .. وقد شفيت من جراحك . سأصلى لله شكرا . **(تقبله بحركة اندفاع لا ارادية)**

چوان : **(يكاد يخنقه الاغتباط ، فلا يقول ســوى كلمــة واحدة)** بياتريز .. بياتريز !

ابن أخيه : **(يركع ويقبل يد چوان . ينتبه چوان ، ثم يأخذ فى تفحص وجهه بتمعن ، وقد توجس مما يبدو أن الآخر أيضــا قد تبينه)** أحييك يا ســيدى ، وأرجو أن يمن الله عليك بالقوة عاجلا .

چوان : **(فى ضعف)** عاجلا .. سأكون قويا .. رغم كل الجروح **(بعد فترة)** اذن فاسمك چوان ، أيضا ؟

ابن أخيه : تشرفا بك . ومع أننى لن أستطيع أن أزيد الاسم شرفا ، الا أننى آمل أن أحمله عن جدارة .

چوان : **(فى نبرة دعاء تتسرب الى صــوته)** أجئت هنــا سعيا وراء المخاطر ؟

ابن أخيه : جئت فى خدمة أسبانيا .

چوان : **(بصــوت أجش)** لابد أن يكون لك قلب فولاذى كسيفك . هل لك هذا القلب ؟

بياتريز : **(بحماس ، مع شعور بالألم للطريقة التىاستقبلهما**

بهـا چوان) أوه ، انه شـجاع . كان چوان هو الذى قاد المدافعين عنـدما حاول الرعاع الهجوم على القصر .

چوان : **(يزداد اهتيـاجا ـ ويحاول أن يخفى كراهيته تحت قنـاع من التودد)** هذا عمـل من أعمـال الشجاعة . ولـكنك ، دون شـك ، قد سمعت أقاصيص عن جبال من الجواهر .. ومدن الذهب فى كاثاى . هل تطمع فى أن تصبح غنيا ؟

ابن أخيه : أنا لا أحفل بالغنى ، أما عن المدن الذهبية فلا أريد الا أن أرفع أعلام أسبانيا على قلاعها .

چوان : **(وقد أوحى اليه بالاحترام رغما عنه)** هذه أحلام مجيدة . انه الصدى تحمله ريح السنين .

بياتريز : **(ناظرة الى چوان الصغير بفخر كبير ، اذ يتفحص چوان وجهه)** انه كما كنت أنت فى أقاصيص أمى . **(هى والشاب ، يتعلق نظر كل منهما بالآخر)**

چوان : **(بعد نضـال مع مرارته ـ يقول بلهجة تسـليم بالقدر)** وهكذا ... قلب عجوز ... صامت . **(مستنهضا نفسه ـ يقول بعمق وقوة)** ولكن فى فرح ، فى فـرح **(ينظر اليـه فى توجس حائر . ويبتسم هو فى رقة لبيـاتريز)** اذن فقد وجدته أخيرا .. وجدت شبيهى ؟

بياتريز : **(تحمر خجلا ، وتقول فى ارتباك)** لست .. لست أدرى يا دون چوان .

چوان : اذن فأنا أدرى **(متأملا فى شىء من الحزن)** لقد فوت على آخر عمـل كنت أنوى القيام به . كانت عند

الرجل العجوز قصة ليرويها لك ـ قصة شجاعة رائعة . ولكنه يرى الآن أنه اذا لم يستطع الشباب أن يكتم سره ، فان على الشيخوخة أن تحتفظ بأسرارها . شبح هرم حزين يطارد ذكرياتكما ! يا لها من هدية زواج كئيبة ! **(ينظر كل منهما الى الآخر ثانية فى شعور من الغموض والتوجس ، ثم يرفع چوان بصره اليهما فجأة ويقول فى وضوح ودون مواربة)** أنتما متحابان . **(ثم يمضى سريعا بلهجة محمومة)** عفوا . . . أنا جندى خشن . ولابد من العجلة . أسرعا . . الا تطلبان منى أن أباركما ؟

بياتريز : **(تخر على ركبتيها الى جواره ـ تقول فى سعادة)** نعم ، نعم ، أيها الدون چوان الكريم . **(ويركع ابن أخيه الى جانبها)**

چوان : **(يرفع يديه فوق رأسيهما)** ياشباب هذهالأرض ، الحب . مرحى . ووداعا . . الا فلتكونا مباركين على الدوام **(يلمس رأسيهما بيديه ثم يتهاوى مغمضا عينيه . ينهضان ويقفان ينظران اليه غير واثقين)**

ابن أخيه : **(بعد فترة ـ فى همس)** انه يريد أن ينام .

بياتريز : **(اذ يسيران ، تقول فى همس ، والدموع فى عينيها)** آوه چوان ، أنا خائفة . ولكن . . مع ذلك . . لست حزينة .

ابن أخيه : **(يضمها بين ذراعيه بقوة)** حياتى ، روحى . **(يقبلها)**

بياتريز : غرامى .

ابن أخيه : الحياة جميـلة . الأرض تغنى لنا . فلنغن نحن ايضا (**يذهب الى حيث العود ويلتقطه**)

بياتريز : (**فى سعادة**) نعم (**ثم تتذكر**) شش (**وتشير الى چوان**)

ابن أخيه : (**يحثها**) انه نائم . نستطيع أن نخرج بعيدا وراء الجدران . (**يطوقها بذراعه ويذهب بها خارجا من الباب فى المؤخرة**)

چوان : (**يفتح عينيـه ، وينظر خلفهما ، وعلى شـفتيه ابتسامة حانية**) نعم ، اذهبا حيث الجمال . غنيا . (**ومن الخارج يسمع صـوت بياتريز وابن أخيه يغنيان معا أغنيتهما للينبوع**)

الحب زهرة ،
دائما مزدهرة .
الجمال ينبوع ،
دائما يتدفق ،
الى العلا ، الى مصدر الشمس ،
الى أعلا ، الى السماء اللازوردية ،
يتحد مع الله ،
ولكن يعود دائما ،
ليقبل الأرض كى تعيش الأزهار .

چوان : (**يستمع فى نشوة ، ثم يحنى رأسه ، ويبكى . ثم يغوص برأسه الى الوراء فى مقعده متعبا وعيناه مغمضتان . يدخل لويز قادما من الدير**)

لويز : (**يتقدم فى سرعة متوجسا**) چوان ! (**يبلغه صوت الأغنية ، ويبـدو عليه السخط**) هل فقـدا كل

مشاعرهما ؟ سأوقف ... **(يهم نحو الباب)**

چوان : **(فى صوت رنان)** لا . أنا هذه الأغنية . على المرء أن يتقبل ، ويستوعب ، ويرد ، ويصبح هو نفسه رمزا . چوان يونس دى ليون قد أصبح الماضى . . تحول الى وجوه الجمال الألف التى تصنع السعادة : لون الغروب ، وفجر الغد ، وأنفاس الرياح العظمى ، وضوء الشمس على الحشائش ، وأغنية الهوام ، وحفيف الأغصان ، وأطماع النملة ! **(فى نشوة)** آه يا لويز ! لقد بدأت أتبين الشـــباب الأبدى . لقد وجدت ينبوعى . أيا ينبوع الخلود ، استعد هذه النقطة ، روحى . **(يموت . لويز يحنى رأســه ويبكى)**

كبير الرهبان: **(يدخل من اليمين)** صلاة المســاء **(فى صــوت ارتياع ، اذ يحملق فى چوان)** هل مات ..؟

لويز : **(وقد تنبــه ــ فى روح عالية)** لا . بل يعيش فى الله . فلنصل . **(يخر لويز على ركبتيه الى جانب جثة چوان ، وكبير الرهبان الى جانبه يرفع عينيه ويديه المضمومتين الى السماء ويصــلى بتبتل . وتبدو أصوات بياتريز وابن الأخ فى أغنية النافورة ، كأنها تصعد الى قمة عالية منتشــية ، ثم ترتفع صلاة الراهبين فى عمق وحيوية ، وتندمج الأصوات فى انسجام يملأ الجو ، شاملا كل شىء ، متغنيا بسر الحياة بينما تنزل الستار)**

ســتار الختــام

صـــدر من هذه المـكتبة :

١ ـ الأحرار

للكاتب الأمريكى : سدنى كنجزلى
ترجمـــة : عبد الحليم البشلاوى

٢ ـ الرجل العجوز

للكاتب الروسى : ماكسيم جوركى
ترجمـــة : عبد الحليم البشلاوى

٣ ـ بيت الدمية

للكاتب النرويجى : هنريك ابسن
ترجمـــة : كامل يوسف

مكتبة الفنون الدرامية

تحت الطبع :

قطة على سطح من الصفيح الساخن

للكاتب الأمريكى : تنيسى وليامز

ترجمـــة : عبد الحليم البشلاوى

مكتبة مصر

دار مصر للطباعة
٣٧ (٩) شارع كامل صدقى الفجالة

الثمن ٣٠ قرشا